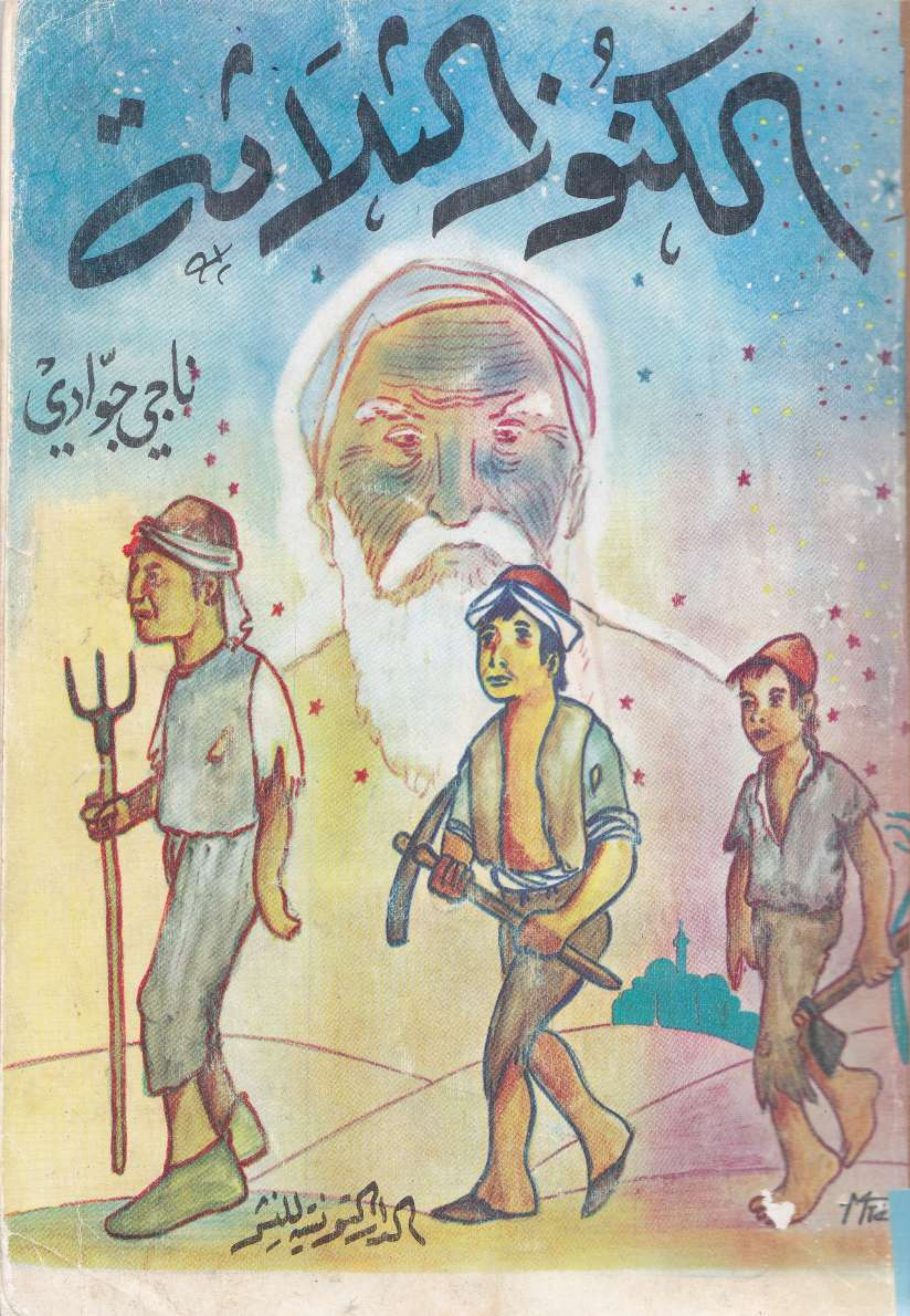

الكنوز الثلاثة
ناجي جوّادي
الدار التونسية للنشر

نَاجي جَوّادي

الكُنوزُ الثّلاثَة

النشرة الرابعة

الكُنُوزُ الثَّلاَثَة

كَانَ يَعِيشُ فِي قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ ثَلاَثَةُ إِخْوَةٍ ، أَكْبَرُهُمْ يُسَمَّى عُلْوَانَ ، وَأَوْسَطُهُمْ يُدْعَى زَعْفَانَ ، أَمَّا ٱلْأَخُ ٱلْأَصْغَرُ فَكَانَ مَعْرُوفًا بِاسْمِ بَسَّامٍ ، مَاتَ وَالِدُهُمْ مُنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ وَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ مِنَ ٱلرِّزْقِ شَيْئاً ، فَأَصْبَحُوا بَعْدَهُ يُجَاهِدُونَ جِهَادًا كَبِيرًا لِكَسْبِ لُقْمَةِ ٱلْعَيْشِ ، فَهُمْ لاَ يَسْتَصْعِبُونَ أَيَّ عَمَلٍ يُطْلَبُ مِنْهُمْ ، وَلاَ يَحْتَقِرُونَ أَيَّ مَبْلَغٍ مِنَ ٱلْمَالِ يُعْرَضُ عَلَيْهِمْ ، ظَلُّوا طِيلَةَ أَعْوَامٍ كَثِيرَةٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَى عَمَلٍ ، يَدْعُوهُمْ ذَلِكَ ٱلْفَلاَّحُ لِمُسَاعَدَتِهِ فِي حَفْرِ أَرْضِهِ وَتَخْطِيطِهَا ، أَوْ جَنْيِ

ثِمَارِهَا وَتَقْلِيمِ أَشْجَارِهَا ، فَيَقْبَلُونَ دَعْوَتَهُ مُبْتَسِمِينَ رَاضِينَ وَيَأْمُرُهُمْ أَحَدُ ٱلتُّجَّارِ بِنَقْلِ سِلْعَةٍ إِلَى إِحْدَى ٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةِ فَيُقْبِلُونَ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ مَا وَهَبَهُمُ ٱللهُ مِنْ قُوَّةٍ وَحَزْمٍ ، وَهُمْ دَائِمًا لاَ يَمِيلُونَ إِلَى ٱلرَّاحَةِ وَلاَ يَبْخَلُونَ بِجُهْدٍ ، وَكَانَ سُلُوكُهُمْ هَذَا قَدْ جَعَلَهُمْ مُحْتَرَمِينَ فِي قَرْيَتِهِمْ ، مَوْفُورِي ٱلْكَرَامَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا ، وَمَوْضِعَ ثِقَتِهِمْ وَإِعْجَابِهِمْ.

لَكِنَّ ٱلأَخَ ٱلأَصْغَرَ كَانَ يُخْفِي عَلَى أَخَوَيْهِ مُنْذُ مُدَّةٍ تَبَرُّمَهُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ ٱلَّتِي يَعِيشُهَا مَعَهُمْ ، فَقَدْ كَانَ ذَا طُمُوحٍ لاَ يُحَدُّ وَنَفْسٍ عَزِيزَةٍ تَكْرَهُ ٱلضَّعْفَ وَٱلذُّلَّ ، وَتَتُوقُ إِلَى ٱلْعِزِّ وَٱلرِّفْعَةِ . وَفِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ مِنْ لَيَالِي ٱلصَّيْفِ أَنْهَى ٱلإِخْوَةُ ٱلثَّلاَثَةُ عَمَلَهُمْ ، وَعَادُوا مُتْعَبِينَ إِلَى كُوخِهِمُ ٱلْحَقِيرِ . وَبَعْدَ أَنْ وَصَلُوا وَأَصَابُوا شَيْئًا مِنَ ٱلطَّعَامِ تَمَدَّدُوا عَلَى حَصِيرٍ بَالٍ فَرَشُوهُ أَمَامَ ٱلْكُوخِ ، وَٱسْتَسْلَمُوا لِرَاحَةٍ لَذِيذَةٍ بَعْدَ عَمَلٍ مُتْعِبٍ تَوَاصَلَ كَامِلَ ٱلنَّهَارِ وَجُزْءًا مِنَ ٱللَّيْلِ . وَٱغْتَنَمَ بَسَّامٌ سُكُوتَ أَخَوَيْهِ وَقَالَ لَهُمَا : أَنَا لاَ أُخْفِي عَلَيْكُمَا أَنَّنِي بَدَأْتُ أَسْأَمُ هَذِهِ ٱلْحَيَاةَ

ٱلَّتِي نَحْيَاهَا مُنْذُ مُدَّةٍ ، وَأَرَى مِنَ ٱلْوَاجِبِ عَلَيْنَا أَنْ نُفَكِّرَ فِي أَنْفُسِنَا وَفِي مُسْتَقْبَلِنَا قَبْلَ غَيْرِنَا ؛ وَلاَ بُدَّ لَنَا مِنَ ٱلسَّعْيِ لِتَحْقِيقِ حَيَاةٍ أَفْضَلَ .. مَا رَأْيُكُمَا ؟

صَمَتَ ٱلْجَمِيعُ هُنَيْهَةً ثُمَّ أَجَابَهُ ٱلأَخُ ٱلأَوْسَطُ :

- كُلُّ مَا تَقُولُهُ صَوَابٌ ، وَلَكِنْ مَا عَسَانَا نَفْعَلُ وَنَحْنُ لاَ نَكْسِبُ قُوتَ يَوْمِنَا إِلاَّ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ وَعَمَلٍ مُضْنٍ ، وَمِنَ ٱلْوَاجِبِ فِي مِثْلِ هَذِهِ ٱلْحَالِ أَنْ نَتَدَرَّعَ بِالصَّبْرِ ، وَنَكْتَفِيَ بِمَا يَدُرُّ بِهِ عَلَيْنَا عَمَلُنَا ، وَلَعَلَّ ٱلْحَيَاةَ تَتَغَيَّرُ يَوْمًا ، فَتَبْتَسِمَ لَنَا ٱلأَيَّامُ وَتُذِيقَنَا حَلاَوَةَ ٱلْهَنَاءِ بَعْدَ مَرَارَةِ ٱلشَّقَاءِ .

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ بَسَّامٌ إِلَى أَخِيهِ عُلْوَانَ وَقَالَ لَهُ :

- وَأَنْتَ يَا أَخِي مَا لَكَ وَاجِمًا صَامِتًا لاَ تَقُولُ شَيْئًا ؟

فَأَجَابَهُ عُلْوَانُ بَعْدَ أَنِ ٱسْتَوَى جَالِسًا :

- ٱلْحَقِيقَةُ أَنَّ كُلَّ مَا تَقُولاَنِهِ لاَ يَرُوقُنِي ، فَأَنْتُمَا طَمُوحَانِ

أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي ، تَحْلُمَانِ بِتَحْقِيقِ أَشْيَاءَ فَوْقَ قُدْرَتِنَا ، وَتُعَلِّلاَنِ ٱلنَّفْسَ بِأَوْهَامٍ بَعِيدَةٍ عَنَّا كُلَّ ٱلْبُعْدِ ، إِنَّ عَمَلَنَا ٱلَّذِي نَقُومُ بِهِ كُلَّ يَوْمٍ لَهُوَ عَمَلٌ شَرِيفٌ لاَ عَيْبَ فِيهِ ، فَلِمَاذَا تُرِيدُ يَا بَسَّامُ ٱلابْتِعَادَ عَنْهُ ، خَيْرٌ لَنَا أَنْ نَبْقَى عَلَى حَالَتِنَا مِنْ أَنْ نَخْسَرَ كُلَّ شَيْءٍ .

فَقَالَ بَسَّامٌ :

ـ إِذَا كُنْتُ أَنَا طَمُوحًا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي فَأَنْتَ أَيْضًا قَنُوعٌ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي ، هَلْ نَسِيتَ أَنَّنَا نَحْيَا عَالَةً عَلَى غَيْرِنَا ؟ هَلْ نَسِيتَ أَنَّنَا دَائِمًا تَحْتَ رَحْمَةِ أُولَئِكَ ٱلْفَلاَّحِينَ وَٱلتُّجَّارِ نَنْتَظِرُ مِنْهُمْ بِلَهْفَةٍ تَكْلِيفَنَا بِأَيِّ عَمَلٍ مُقَابِلَ مَبْلَغٍ زَهِيدٍ ؟ أَلَيْسَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ أَنْ نَضْمَنَ لأَنْفُسِنَا مُسْتَقْبَلاً سَعِيدًا ؟ وَإِلَى مَتَى سَنَبْقَى عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ ؟ مَاذَا سَنَفْعَلُ إِذَا أَقْعَدَنَا يَوْمًا مَرَضٌ أَوْ كِبَرٌ عَنِ ٱلْعَمَلِ ؟ مَاذَا سَنَقْتَاتُ وَمِمَّ سَنَعِيشُ ؟ أَلَيْسَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَنْ نَدَّخِرَ لِغَدِنَا ٱلْمَجْهُولِ شَيْئًا ؟

مَا كَادَ بَسَّامٌ يَنْتَهِي مِنْ كَلاَمِهِ هَذَا وَمِنْ إِلْقَاءِ تِلْكَ

ٱلأَسْئِلَةِ ٱلْمُحْرِجَةِ عَلَى أَخَوَيْهِ ، حَتَّى لاَحَ مِنْ بَعِيدٍ شَبَحٌ يَكْتَنِفُهُ ٱلظَّلاَمُ ، يَمْشِي بِخُطًى ثَقِيلَةٍ مُتَّجِهًا نَحْوَ كُوخِ الإِخْوَةِ ٱلثَّلاَثَةِ ، مُهْتَدِيًا بِأَشِعَّةٍ فَاتِرَةٍ كَانَ يُرْسِلُهَا ٱلْقَمَرُ ٱلْمُتَلأْلِئُ فِي ٱلسَّمَاءِ . وَفِي هَذَا ٱلْوَقْتِ نَهَضَ زَعْفَانُ وَحَدَّقَ بِبَصَرِهِ نَحْوَ ذَلِكَ ٱلشَّبَحِ ٱلَّذِي مَازَالَ بَعِيدًا ، ثُمَّ قَالَ لأَخَوَيْهِ :

ـ مَنْ تُرَى ٱلْقَادِمُ إِلَيْنَا فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ ؟ يَظْهَرُ لِي أَنَّهُ شَيْخٌ عَجُوزٌ . فَأَنَا أَرَى بِيَمِينِهِ عَصًا يَتَّكِئُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَمْشِي مُتَثَاقِلاً وَمُتَحَامِلاً عَلَى نَفْسِهِ . أَلاَ تَظُنَّانِ أَنَّهُ عَابِرُ سَبِيلٍ آتٍ لِيَقْضِيَ لَيْلَتَهُ عِنْدَنَا لِيُوَاصِلَ مَسِيرَهُ فِي ٱلْغَدِ ؟

فَأَجَابَهُ عُلْوَانُ :

ـ لاَ أَسْتَبْعِدُ ذَلِكَ ، رُبَّمَا يَكُونُ عَابِرَ سَبِيلٍ كَمَا قُلْتَ ، وَأَهْلاً بِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وَقَفَ ثَلاَثَتُهُمْ وَأَخَذُوا يَتَرَقَّبُونَ هَذَا ٱلزَّائِرَ ٱلْغَرِيبَ . وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحَظَاتٌ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِمْ . وَإِذَا بِهِ شَيْخٌ هَرِمٌ تَقَوَّسَ ظَهْرُهُ وَهَزَلَ جِسْمُهُ ، تُغَطِّي وَجْهَهُ ٱلْمُتَجَعِّدَ لِحْيَةٌ كَثَّةٌ بَيْضَاءُ .

وَعِنْدَمَا وَقَفَ أَمَامَهُمْ طَرَحَ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ ، فَرَدُّوهُ بِأَحْسَنَ مِنْهُ، ثُمَّ دَعَوْهُ إِلَى الْجُلُوسِ مَعَهُمْ فَلَبَّى مُبْتَسِمًا وَهُوَ يَلْهَثُ مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ، وَبَعْدَ أَنِ اسْتَرَاحَ قَلِيلاً قَالَ لَهُ زَغْفَانُ :

إِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ أَيُّهَا الشَّيْخُ ؟

فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ وَهُوَ يَعْبَثُ بِشَعْرِ لِحْيَتِهِ:



لَسْتُ أَدْرِي يَا أَبْنَائِي ، فَأَنَا مُنْذُ كُنْتُ شَابًّا مِثْلَ فَا أَعْرِفُ الاسْتِقْرَارَ يَوْمًا ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ لِي مَوْضِعًا ، فَا دَائِمًا أَتَجَوَّلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَأَسْعَى فِي أَرْضِ اللهِ الْوَاسِعَةِ ، لاَ يُقْعِدُنِي عَنِ السَّيْرِ إِلاَّ الظَّلاَمُ الْحَالِكُ أَوِ التَّعَبُ الشَّدِيدُ.

وَكَانَ بَسَّامٌ إِلَى جَانِبِ طُمُوحِهِ مَيَّالاً إِلَى حُبِّ الاطِّلاَعِ فَقَالَ لِلشَّيْخِ فِي تَعَجُّبٍ :

– وَلَكِنْ مَا هِيَ غَايَتُكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ وَمَاذَا تَشْتَغِلُ ؟

فَأَجَابَهُ الشَّيْخُ :

– غَايَتِي الْأُولَى مِنْ ذَلِكَ حُبُّ الاطِّلاَعِ عَلَى أَمَاكِنَ لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهَا مِنْ قَبْلُ ، أَمَّا حِرْفَتِي فَهِيَ الْكَهَانَةُ ، فَلِي دِرَايَةٌ وَاسِعَةٌ بِعِلْمِ الْفَلَكِ تُمَكِّنُنِي مِنْ مَعْرِفَةِ مَا تُخَبِّئُهُ الْأَيَّامُ لِكُلِّ النَّاسِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَنْظُرَ فِي النُّجُومِ بَعْضَ الدَّقَائِقِ .

وَفِي هَذَا الْحِينِ تَسَلَّلَ عُلْوَانُ وَوَلَجَ الْكُوخَ ثُمَّ عَادَ مِنْهُ وَمَعَهُ كِسْرَةُ خُبْزٍ يَابِسَةٌ وَبَعْضُ الإِدَامِ ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ جَثَا أَمَامَ الشَّيْخِ وَقَالَ :

– لَعَلَّكَ جَائِعٌ أَيُّهَا ٱلضَّيْفُ ، فَهَذَا مَا بَقِيَ لَنَا مِن عَشَائِنَا نُقَدِّمُهُ إِلَيْكَ رَاجِينَ أَنْ تَتَقَبَّلَهُ مِنَّا .

مَدَّ ٱلشَّيْخُ كَفَّهُ مُبْتَسِمًا وَتَنَاوَلَ مَا بِيَدِ عُلْوَانَ مِنْ خُبْزٍ وَإِدَامٍ وَشَرَعَ يَأْكُلُ بِنَهَمٍ مَا بَعْدَهُ نَهَمٌ ، وَعِنْدَمَا انْتَهَى مَسَحَ يَدَيْهِ بِطَرَفِ رِدَائِهِ وَحَمِدَ اللهَ وَقَالَ :

– جَزَاكُمُ اللهُ خَيْرًا يَا أَبْنَائِي وَلاَ أَضَاعَ لَكُمُ ٱللهُ مَعْرُوفًا .

غَمَرَ قُلُوبَ الإِخْوَةِ ٱلثَّلاَثَةِ فَرَحٌ لاَ يُعَادِلُهُ فَرَحٌ حِينَمَا عَلِمُوا أَنَّ زَائِرَهُمْ رَجُلٌ مُنَجِّمٌ ، وَلَقَدْ تَمَنَّى كُلٌّ مِنْهُمْ لَوْ يَنْظُرُ هَذَا ٱلْكَاهِنُ فِي طَالِعِهِمْ لِيَعْرِفُوا بَعْضَ مَا يَحْجُبُهُ عَنْهُمُ ٱلْغَدُ ٱلْمَجْهُولُ ، فَقَالَ لَهُ بَسَّامٌ مُتَوَسِّلاً :

– إِذَا كُنْتَ أَيُّهَا ٱلزَّائِرُ ٱلْكَرِيمُ مُنَجِّمًا كَمَا تَقُولُ فَإِنَّنَا نَطْلُبُ مِنْكَ أَنْ تَنْظُرَ فِي طَالِعِنَا هَذِهِ ٱللَّيْلَةَ ، فَهَذِهِ ٱلنُّجُومُ فِي ٱلسَّمَاءِ مُتَلأْلِئَةٌ كَالدَّرَارِي لاَ يَحْجُبُهَا عَنْكَ سَحَابٌ وَلاَ يُخْفِيهَا عَنْ نَاظِرَيْكَ ضَبَابٌ ، فَنَحْنُ فِي حَيْرَةٍ مِنْ مُسْتَقْبَلِنَا ، وَعَلَى أَحَرَّ مِنَ ٱلْجَمْرِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ .

سَكَتَ ٱلشَّيْخُ هُنَيْهَةً ثُمَّ أَضَافَ قَائِلاً :

– سَمْعًا وَطَاعَةً يَا أَبْنَائِي ، وَكَيْفَ لِي أَنْ أَرُدَّ لَكُمْ مَطْلَبًا وَقَدْ أَكْرَمْتُمُونِي وَاحْتَفَيْتُمْ بِمَقْدَمِي ، وَهَا أَنَا سَأَفْعَلُ ذَلِكَ فَاصْمُتُوا قَلِيلاً وَلاَ تَقْطَعُوا عَلَيَّ تَأَمُّلِي بِهَمْسَةٍ أَوْ حَرَكَةٍ ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِمَا تَطْلُبُونَ .

وَضَعَ ٱلشَّيْخُ يَدَيْهِ وَرَاءَهُ وَاتَّكَأَ بِهِمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ وَرَاحَ يُحَدِّقُ فِي ٱلنُّجُومِ طَوِيلاً ، وَٱلْإِخْوَةُ ٱلثَّلاَثَةُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فِي هَيْبَةٍ وَخُشُوعٍ ، لاَ يُبْدُونَ حَرَاكًا وَلاَ يَنْبِسُونَ بِحَرْفٍ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحَظَاتٌ حَتَّى خَفَضَ ٱلشَّيْخُ رَأْسَهُ وَنَفَضَ مَا عَلِقَ بِكَفَّيْهِ مِنْ تُرَابٍ وَنَظَرَ إِلَى ٱلْإِخْوَةِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ وَٱلْبِشْرُ يَعْلُو وَجْهَهُ :

– هَنِيئًا لَكُمْ أَيُّهَا ٱلسُّعَدَاءُ ، فَٱلْأَيَّامُ تَسْتَعِدُّ لِلاِبْتِسَامِ لَكُمْ بِمِلْءِ فِيهَا ، فَأَنْتُمْ كُلُّكُمْ مَحْظُوظُونَ فِي هَذِهِ ٱلْحَيَاةِ .

عِنْدَئِذٍ هَتَفَ بِهِ ٱلْأَخُ ٱلْأَصْغَرُ قَائِلاً وَهُوَ لاَ يَتَمَالَكُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْفَرَحِ :

- مَاذَا رَأَيْتَ أَيُّهَا ٱلشَّيْخُ ؟ أَخْبِرْنَا بِرَبِّكَ ، أَخْبِرْنَا وَلاَ تَتْرُكِ الانْتِظَارَ يُعَذِّبُنَا .

ثُمَّ أَرْدَفَ ٱلأَخَوَانِ الآخَرَانِ قَائِلَيْنِ :

- أَصَحِيحٌ مَا تَقُولُ ؟ كَيْفَ سَتَبْتَسِمُ لَنَا الأَيَّامُ ؟ وَمَتَى ؟

طَأْطَأَ ٱلشَّيْخُ رَأْسَهُ وَشَرَعَ يُدَاعِبُ لِحْيَتَهُ ٱلْكَثَّةَ ثُمَّ قَالَ :

اسْمَعُوا أَيُّهَا ٱلأَبْنَاءُ ، رَأَيْتُ فِي ٱلنُّجُومِ أَنَّ كُنُوزًا ثَلاَثَةً تَنْتَظِرُكُمْ ، وَسَيَكُونُ لِكُلٍّ مِنْكُمْ وَاحِدٌ مِنْهَا ، أَمَّا اثْنَانِ فَهُمَا عَلَى نَفَاسَتِهِمَا - سَيَزُولاَنِ يَوْمًا وَسَوْفَ لاَ يَبْقَى مِنْهُمَا شَيْءٌ ، وَمَا أَشَدَّ ٱلسَّلْبَ بَعْدَ ٱلْعَطَاءِ فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ . أَمَّا ٱلْكَنْزُ ٱلثَّالِثُ فَهُوَ كَنْزٌ خَالِدٌ إِلَى ٱلأَبَدِ ، بَاقٍ بَقَاءَ ٱلدَّهْرِ ، لاَ تَنَالُهُ يَدُ ٱلزَّوَالِ أَبَدًا ، فَابْحَثُوا عَنْ هَذِهِ ٱلْكُنُوزِ إِنْ شِئْتُمْ .

قَالَ زَعْفَانُ لِلشَّيْخِ عِنْدَمَا انْقَطَعَ عَنِ ٱلْكَلاَمِ :

- هَلْ لَكَ أَنْ تَدُلَّنَا عَلَى مَوْضِعِهَا عَلَى ٱلأَقَلِّ ؟

أَجَابَهُ ٱلشَّيْخُ :

لَيْسَ ذَلِكَ مِنْ شَأْنِي ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ لَكُمْ أَنْ تُغَادِرُوا هَذَا ٱلْمَكَانَ وَتَضْرِبُوا فِي أَرْضِ ٱللهِ ٱلْوَاسِعَةِ حَتَّى تَعْثُرُوا عَلَى ضَالَّتِكُمْ وَمَا أَظُنُّكُمْ خَائِبِينَ . وَإِنِّي أَبْتَهِلُ إِلَى ٱللهِ أَنْ يُسَدِّدَ خُطَاكُمْ وَيُوَفِّقَكُمْ إِلَى تَحْقِيقِ مَا تَصْبُونَ إِلَيْهِ .

نَزَلَ كَلاَمُ ٱلشَّيْخِ فِي نَفْسِ بَسَّامٍ نُزُولَ ٱلطَّلِّ عَلَى ٱلزَّهْرَةِ ٱلذَّاوِيَةِ ، فَلَقَدْ أَحَسَّ أَنَّ ٱلأَمَلَ بَدَأَ يُعَاوِدُهُ مِنْ جَدِيدٍ ، ذَلِكَ ٱلأَمَلُ ٱلَّذِي طَالَمَا شَغَلَ نَفْسَهُ بِهِ وَعَلَّلَهَا بِتَحْقِيقِهِ . لَمْ يَكُنْ هَذَا ٱلأَمَلُ سِوَى تَقْرِيبِ سَاعَةِ ٱلْخَلاَصِ مِمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ ضَنْكٍ وَشَقَاءٍ . وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي ٱلتَّفْكِيرِ إِذْ سَمِعَ أَخَاهُ عُلْوَانَ يَقُولُ لِلشَّيْخِ :

- أَتَعْتَقِدُ أَنَّ بَحْثَنَا عَنِ ٱلْكُنُوزِ ٱلثَّلاَثَةِ سَيُكَلَّلُ يَوْمًا بِالنَّجَاحِ ، إِنَّنَا نَخْشَى أَنْ نَجِدَ أَنْفُسَنَا فِي ٱلنِّهَايَةِ قَدْ صَرَفْنَا مُدَّةً طَوِيلَةً مِنْ عُمُرِنَا دُونَ ٱلْوُصُولِ إِلَى نَتِيجَةٍ ؟

نَظَرَ ٱلشَّيْخُ إِلَى عُلْوَانَ نَظْرَةً حَادَّةً فِيهَا لَوْمٌ وَعِتَابٌ وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا ، لَكِنَّ ٱلأَخَ ٱلأَصْغَرَ سَبَقَهُ إِلَى ذَلِكَ وَقَالَ :

– مَا أَظُنُّ ضَيْفَنَا هَذَا إِلاَّ صَادِقًا فِي مَا قَالَ ، وَلَيْسَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَنْ نَتَّهِمَهُ بِالْكَذِبِ ، إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَحْمِلُهُ عَلَى ٱلْكَذِبِ ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَهَذِهِ آخِرُ لَيْلَةٍ نُقَضِّيهَا هُنَا ، وَغَدًا نَشُدُّ ٱلرِّحَالَ بَاكِرًا بَاحِثِينَ عَنْ كُنُوزِنَا ٱلْمُنْتَظَرَةِ ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَى ٱللهِ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ يَا زَعْفَانُ ؟ وَأَنْتَ يَا عُلْوَانُ ؟

أَطْرَقَ ٱلْأَخَوَانِ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَ زَعْفَانُ :

– هِيَ مُغَامَرَةٌ لاَ تَخْلُو مِنْ خَطَرٍ ، لَكِنْ لاَ بَأْسَ مِنْ أَنْ نَقُومَ بِهَا لِنُجَرِّبَ حَظَّنَا ، وَلَكِنْ مَا لِأَخِينَا عُلْوَانَ ذَاهِلاً لاَ يُشَارِكُنَا فِي حَدِيثِنَا ، فَنَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى آرَائِهِ ٱلَّتِي قَدْ تُفِيدُنَا كَثِيرًا .

أَفَاقَ عُلْوَانُ مِنْ ذُهُولِهِ وَمَطَّ شَفَتَيْهِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ زَفْرَةً حَرَّى وَقَالَ فِي صَوْتٍ يَرْشَحُ تَأَثُّرًا :

– رَأْيَانِ يَغْلِبَانِ رَأْيًا وَاحِدًا لاَ مَحَالَةَ ، وَٱلْحَقِيقَةُ أَنَّهُ رَغْمَ تَخَوُّفِي مِمَّا تَدْعُوَانِنِي إِلَيْهِ ، فَأَنَا أُوَافِقُ عَلَى مَا سَتُقَرِّرَانِ وَلَنْ أَعْصِيَ لَكُمَا أَمْرًا .

اطْمَأَنَّ بَسَّامٌ لِكَلاَمِ أَخِيهِ عُلْوَانَ وَعَلَتْ شَفَتَيْهِ ٱبْتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ وَقَالَ :

– لَمْ يَبْقَ لَنَا إِلاَّ أَنْ نَنَامَ آخِرَ لَيْلَتِنَا هُنَا ، وَعِنْدَ ٱلْفَجْرِ نُوَدِّعُ ضَيْفَنَا وَنَأْخُذُ فِي سَيْرِنَا .

قَضَى ٱلْفَتَى ٱلْأَصْغَرُ لَيْلَتَهُ فِي سُهَادٍ يَرْقُبُ ٱلنُّجُومَ ٱلزَّاهِيَةَ فِي ٱبْتِهَاجٍ ، وَمَا أَنِ ٱنْبَلَجَ ٱلصُّبْحُ حَتَّى قَامَ إِلَى أَخَوَيْهِ يُوقِظُهُمَا فَإِذَا هُمَا مِثْلُهُ لَمْ يَعْرِفَا لِلنَّوْمِ طَعْمًا . نَهَضَ ٱلْجَمِيعُ وَلَبِسُوا نِعَالَهُمْ وَٱسْتَعَدُّوا لِلرَّحِيلِ ، فَقَبَّلَ ٱلإِخْوَةُ ٱلثَّلاَثَةُ ٱلشَّيْخَ وَوَدَّعُوهُ وَٱنْصَرَفُوا ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ مِنْ زَادٍ سِوَى كِيسٍ صَغِيرٍ مَمْلُوءٍ سَوِيقًا ، وَبَعْضِ ٱلْقُرَيْصَاتِ مِنَ ٱلشَّرِيحَةِ ٱلْيَابِسَةِ وَلِذَلِكَ قَرَّرُوا أَنْ يَقْتَصِدُوا كُلَّ ٱلاقْتِصَادِ فِي مَا لَدَيْهِمْ مِنْ زَادٍ ، حَتَّى يَكْفِيَهُمْ أَطْوَلَ مُدَّةٍ مُمْكِنَةٍ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ عَلَى أَبْوَابِ رِحْلَةٍ يَجْهَلُونَ جَمِيعًا مُدَّتَهَا .

هَا هُمُ ٱلإِخْوَةُ ٱلثَّلاَثَةُ يَسِيرُونَ فِي تَثَاقُلٍ وَيَجُرُّونَ أَرْجُلَهُمْ جَرًّا ، فَالتَّعَبُ قَدْ أَرْهَقَهُمْ ، وَٱلْعَيَاءُ قَدْ أَخَذَ مِنْهُمْ مَأْخَذَهُ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مَاضُونَ إِلَى ٱلْأَمَامِ لاَ يَثْنِيهِمْ عَمَّا تَعَاهَدُوا عَلَيْهِ فُتُورٌ فِي

أَبْدَانِهِمْ أَوْ خَوْفٌ فِي قُلُوبِهِمْ .

ٱلزَّادُ يُوشِكُ عَلَى ٱلنِّهَايَةِ وَهُمْ لَمْ يَعْثِرُوا بَعْدُ عَلَى شَيْءٍ ، حَتَّى كَادَ ٱلْيَأْسُ يَتَمَلَّكُهُمْ ، وَبَعْدَ مَسِيرِ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ ٱنْتَهَى بِهِمُ ٱلْمَطَافُ إِلَى غَابَةٍ كَثِيفَةِ ٱلْأَشْجَارِ مُتَشَابِكَةِ ٱلْأَغْصَانِ ، وَهَا هُوَ ٱللَّيْلُ قَدْ أَسْدَلَ جَنَاحَيْهِ ٱلْأَسْوَدَيْنِ عَلَى ٱلْكَوْنِ وَغَمَرَ ٱلْبِطَاحَ ، وَخَيَّمَ سُكُونٌ عَمِيقٌ لَمْ يَكُنْ يَقْطَعُهُ بَيْنَ ٱلْحِينِ وَٱلْآخَرِ غَيْرُ عُوَاءِ ٱلذِّئَابِ وَنَقِيقِ ٱلضَّفَادِعِ ، أَمَّا ٱلْقَمَرُ ٱلَّذِي كَانُوا يَهْتَدُونَ بِنُورِهِ فِي أَيَّامِهِمُ ٱلْأُولَى فَقَدِ ٱخْتَفَى تَمَامًا عَنْ أَبْصَارِهِمْ وَبَاتُوا لَا يَعْرِفُونَ ٱتِّجَاهًا ، فَآثَرُوا ٱلْاسْتِرَاحَةَ فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ خَوْفًا مِمَّا يُدَاهِمُهُمْ مِنْ خَطَرٍ إِذَا وَاصَلُوا ٱلسَّيْرَ .

وَعِنْدَ ٱلْفَجْرِ قَامَ بَسَّامٌ يَتَمَشَّى فِي هَذِهِ ٱلْغَابَةِ ، مُعْجَبًا بِمَا فِيهَا مِنْ أَشْجَارٍ مُخْتَلِفَةٍ وَنَبَاتَاتٍ غَرِيبَةٍ ، وَإِذَا بِهِ يَرَى فَجْأَةً حَلْقَةً صَدِئَةً مِنْ حَدِيدٍ مُلْقَاةً عَلَى ٱلْأَرْضِ ، فَٱنْحَنَى لِيَأْخُذَهَا لَكِنَّهُ وَجَدَهَا مُثَبَّتَةً فِي مُرَبَّعٍ رُخَامِيٍّ كَبِيرٍ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ ٱقْتَلَعَ مَا كَانَ حَوْلَهُ مِنْ عُشْبٍ وَأَزَاحَ مَا كَانَ يُحِيطُ بِهِ مِنْ حِجَارَةٍ صَغِيرَةٍ وَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَرَاحَ يَجْذِبُ ٱلْحَلْقَةَ جَذْبًا ، لَكِنَّهُ عَجَزَ

عَنْ ذَلِكَ ، عِنْدَئِذٍ نَادَى أَخَوَيْهِ لِيُسَاعِدَاهُ عَلَى إِزَالَةِ ذَلِكَ ٱلطَّبَقِ ٱلرُّخَامِيِّ ، فَهَبَّا مُسْرِعَيْنِ وَأَخَذَ ثَلَاثَتُهُمْ فِي مُعَالَجَتِهِ بَعْضَ ٱلْوَقْتِ حَتَّى ٱقْتَلَعُوهُ مِنْ مَكَانِهِ ، وَكَمْ كَانَتْ دَهْشَتُهُمْ شَدِيدَةً حِينَ رَأَوْا أَنَّ تَحْتَ ذَلِكَ ٱلْغِطَاءِ ٱلرُّخَامِيِّ مُدْرَجًا طَوِيلًا يُفْضِي إِلَى غُرَفٍ صَغِيرَةٍ مُتَقَابِلَةٍ ، فَنَزَلُوا إِلَيْهَا جَمِيعًا وَفَتَحُوا أَبْوَابَهَا وَإِذَا بِهَا صَنَادِيقُ كَثِيرَةٌ بَعْضُهَا مَوْضُوعٌ فَوْقَ بَعْضٍ ، فَحَاوَلُوا فَتْحَهَا وَتَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ بَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ ، وَلَمْ يَتَمَالَكُوا مِنْ شِدَّةِ ٱلْفَرْحَةِ لَمَّا أَبْصَرُوا ٱلصَّنَادِيقَ تَزْخَرُ بِاللَّآلِئِ ٱلْبَرَّاقَةِ .



وَتَمْتَلِئُ بِالْجَوَاهِرِ ٱلْخَلاَّبَةِ ، فَأَخَذَ عُلْوَانُ وَزَعْفَانُ يَرْقُصَانِ وَهُمَا يَقُولاَنِ :

ـ هَذَا أَحَدُ ٱلْكُنُوزِ ٱلثَّلاَثَةِ ٱلتِي تَكَهَّنَ بِهَا لَنَا ٱلشَّيْخُ ، مَا أَسْعَدَ يَوْمَنَا وَمَا أَشَدَّ فَرْحَتَنَا ، نَعَمْ ٱلآنَ بَدَأَتِ ٱلْحَيَاةُ تَبْتَسِمُ ، وَسَتُقَهْقِهُ عِنْدَمَا نَعْثُرُ عَلَى ٱلْكَنْزَيْنِ الآخَرَيْنِ . ثُمَّ أَخَذُوا يُقَلِّبُونَ تِلْكَ ٱلْجَوَاهِرَ فِي غِبْطَةٍ لاَ تُمَاثِلُهَا غِبْطَةٌ ، وَبَعْدَ أَنِ ٱنْتَهَوْا مِنْ ذَلِكَ قَالَ عُلْوَانُ لِأَخَوَيْهِ :

ـ لاَ يَسَعُنَا فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ إِلاَّ أَنْ نَحْمَدَ ٱللهَ عَلَى مَا وَفَّقَنَا إِلَيْهِ فِي هَذَا ٱلْيَوْمِ ، وَنَتَمَنَّى أَنْ نَعْثُرَ عَلَى ٱلْكَنْزَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ حَتَّى تَتِمَّ فَرْحَتُنَا ٱلشَّامِلَةُ . وَٱلآنَ هَلُمَّ بِنَا نَتَفَاهَمُ فِي شَأْنِ هَذَا ٱلْكَنْزِ . فَقَالَ لَهُ بَسَّامٌ :

ـ ٱلأَمْرُ عَلَى غَايَةٍ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلْيُسْرِ . ذَلِكَ أَنَّ هَذَا ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِنْ ثَلاَثَةٍ وَنَحْنُ ـ كَمَا تَعْلَمَانِ ـ ثَلاَثَةٌ ، وَمِنَ ٱلرَّشَادِ إِذَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ نَصِيبِ وَاحِدٍ مِنَّا ، وَلاَ يُعْقَلُ أَبَداً أَنْ نَقْتَسِمَهُ فَقَالَ زَعْفَانُ :

صَدَقْتَ يَا أَخِي ، وَلَكِنْ مَنْ تُرَى سَيَأْخُذُهُ مِنَّا ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ :

ـ أَمَّا أَنَا فَلاَ أُنَافِسُكُمَا فِيهِ ، بَقِيَ إِذَنْ أَنْ تَتَفَاهَمَا فِي شَأْنِهِ .

تَعَجَّبَ ٱلأَخَوَانِ مِنْ كَلاَمِهِ وَتَسَاءَلاَ كَيْفَ يُعْرِضُ عَنْ كَنْزٍ نَفِيسٍ كَهَذَا وَيَصْرِفُ نَفْسَهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ عُلْوَانُ :

ـ عَجِيبٌ أَمْرُكَ يَا أَخِي ، أَنَا لَمْ أَفْهَمْ لِمَاذَا تَرْفُضُ ٱلْحُصُولَ عَلَى كَنْزٍ نَفِيسٍ كَهَذَا وَأَنْتَ لَقِيتَ فِي سَبِيلِهِ مِنَ ٱلأَتْعَابِ وَٱقْتَحَمْتَ مِنَ ٱلأَهْوَالِ مَا لاَ يُوصَفُ ، وَإِذَا كَانَ لاَبُدَّ مِنْ أَنْ يَنَالَهُ وَاحِدٌ مِنَّا فَأَنْتَ أَوْلَى بِهِ إِذْ لاَ نَنْسَى أَنَّكَ أَنْتَ ٱلَّذِي شَجَّعْتَنَا عَلَى ٱلْقِيَامِ بِهَذِهِ ٱلْمُغَامَرَةِ ، وَأَنْتَ ٱلَّذِي ٱكْتَشَفْتَ ٱلْغِطَاءَ ٱلرُّخَامِيَّ ٱلَّذِي يَحْجُبُ هَذَا ٱلْكَنْزَ عَنِ ٱلأَعْيُنِ ، فَمَا رَأْيُكَ ؟

أَطْرَقَ بَسَّامٌ لَحْظَةً ثُمَّ قَالَ :

ـ أَنَا لاَ أَنْسَى أَنَّ ٱلشَّيْخَ قَدْ تَكَهَّنَ لَنَا بِكُنُوزٍ ثَلاَثَةٍ ، وَلاَ أَنْسَى أَيْضاً ، أَنَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمَا زَائِلاَنِ لاَمَحَالَةَ وَمُنْتَهِيَانِ يَوْماً إِلَى نَفَادٍ ، وَأَنَّ ٱلثَّالِثَ بَاقٍ إِلَى ٱلأَبَدِ ، وَأَنَّ كَنْزاً كَالذِي عَثَرْنَا عَلَيْهِ ٱلْيَوْمَ لَهُوَ مُنْتَهٍ يَوْماً إِلَى ٱلزَّوَالِ وَإِنْ بَدَا لَكُمَا نَفِيساً غَالِياً ، لِأَنَّهُ يَقْعُدُ بِصَاحِبِهِ عَنِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْكَدِّ وَٱلْكَسْبِ

وَيُعَوِّدُهُ ٱلْكَسَلَ وَٱلْمَيْلَ إِلَى ٱلرَّاحَةِ . وَإِنَّ مَالاً تَأْخُذُ مِنْهُ وَلاَ تُضِيفُ إِلَيْهِ لَهُوَ سَائِرٌ حَتْمًا إِلَى ٱلاِنْتِهَاءِ وَٱلنَّفَادِ ، وَلِذَلِكَ نَفَضْتُ يَدَيَّ مِنْهُ حَالَمَا رَأَيْتُهُ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ سَرَّنِي كَثِيرًا فَهُوَ إِذَنْ لِأَحَدِكُمَا ، فَمَنْ سَيَكُونُ صَاحِبَهُ ؟

فَقَالَ عُلْوَانُ وَقَدْ ٱزْدَادَتْ دَهْشَتُهُ :

ـ وَهَلْ تُرِيدُ أَنْ نَتْرُكَهُ فِي مَكَانِهِ وَنَنْصَرِفَ ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ :

ـ أَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَرَى أَنْ يَأْخُذَهُ أَحَدُكُمَا .

فَأَضَافَ عُلْوَانُ قَائِلاً لِزَعْفَانَ :

مَا ٱلْعَمَلُ ؟ فَهُوَ إِمَّا لِي أَوْ لَكَ ، فَمَاذَا سَنَفْعَلُ ؟

فَأَجَابَهُ زَعْفَانُ فِي هُدُوءٍ .

ـ هُوَ لَكَ إِنْ شِئْتَ، فَأَنْتَ أَخُونَا ٱلْأَكْبَرُ أَوْلَى بِهِ مِنِّي،
فَانْتَفَضَ عُلْوَانُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْفَرَحِ وَقَالَ :

ـ شُكْرًا لَكُمَا يَا أَخَوَيَّ ، فَلَقَدْ آثَرْتُمَانِي عَلَى نَفْسَيْكُمَا وَسَأَعْرِفُ كَيْفَ أُنْفِقُ مِنْ هَذَا ٱلْكَنْزِ بِحَوْلِ اللهِ .

فَقَالَ لَهُ بَسَّامٌ :

ـ نُهَنِّئُكَ بِهِ ، وَنَأْمُلُ أَنْ تَقَرَّ بِهِ عَيْنُكَ ، وَتُحَقِّقَ بِهِ مِنَ ٱلْأُمْنِيَاتِ أَعَزَّهَا وَمِنَ ٱلْغَايَاتِ أَبْعَدَهَا . أَمَّا نَحْنُ فَسَنَمْضِي فِي سَبِيلِنَا وَنُوَاصِلُ سَيْرَنَا لِيَجِدَ كُلٌّ مِنَّا كَنْزَهُ ٱلْمَنْشُودَ مِثْلَمَا وَجَدْتَ .

فَقَالَ عُلْوَانُ :

ـ يَعْنِي أَنَّكُمَا سَتَذْهَبَانِ عَنِّي ، وَمَنْ يَدْرِي هَلْ سَنَلْتَقِي يَوْمًا أَمْ سَيَكُونُ فِرَاقُنَا أَبَدِيًّا لاَ لِقَاءَ بَعْدَهُ ؟

رَبَتَ أَخُوهُ ٱلْأَصْغَرُ عَلَى كَتِفِهِ وَقَالَ فِي تَأَثُّرٍ بَالِغٍ :

ـ لاَبُدَّ أَنْ نَفْتَرِقَ يَا أَخِي ، وَفِي سَبِيلِ ٱلْعَيْشِ وَٱلْكَسْبِ يَهُونُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَهَلْ تَرْضَى أَنْ نَبْقَى عَالَةً عَلَيْكَ ، لاَ نَمْلِكُ شَيْئًا فِي حِينِ أَنَّكَ صِرْتَ صَاحِبَ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ وَلَعَلَّ اللهَ يُوَفِّقُنَا إِلَى تَحْقِيقِ مَا نَبْتَغِي ، وَعِنْدَهَا نَعُودُ إِلَيْكَ فَنَنْضَمُّ

إِلَى كَنْزِكَ كَنْزِنَا لِنَعِيشَ مِنْ جَدِيدٍ فِي رَغَدٍ وَهَنَاءٍ . وَقَبْلَ أَنْ نُوَدِّعَكَ نَلْتَمِسُ أَنْ تَمْنَحَنَا لُؤْلُؤَةً وَاحِدَةً مِمَّا لَدَيْكَ نَبِيعُهَا فِي طَرِيقِنَا وَنَقْتَاتُ بِثَمَنِهَا .

لَمْ يَبْخَلْ عُلْوَانُ عَلَى أَخَوَيْهِ بِمَا طَلَبَا ، فَسُرْعَانَ مَا دَفَعَ يَدَهُ إِلَى أَقْرَبِ صُنْدُوقٍ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمَا لُؤْلُؤَةً ثَمِينَةً ، ثُمَّ وَقَفَ ثَلاَثَتُهُمْ وَأَخَذُوا يُحَدِّقُونَ فِي وُجُوهِ بَعْضِهِمْ . لَقَدْ آنَتْ سَاعَةُ الْفِرَاقِ ، فَاغْرَوْرَقَتْ عُيُونُهُمْ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بِالدُّمُوعِ ، وَأَجْهَشُوا بِالْبُكَاءِ ، وَارْتَمَى كُلٌّ عَلَى الآخَرِ يُقَبِّلُهُ وَيُشْبِعُهُ لَثْمًا وَعِنَاقًا . ثُمَّ خَرَجَ الأَخَوَانِ بَسَّامٌ وَزَعْفَانُ وَأَخَذَا فِي السَّيْرِ تَارِكَيْنِ أَخَاهُمَا عُلْوَانَ فِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى التَّأَلُّمِ لِفِرَاقِ أَخَوَيْهِ مِنْهَا إِلَى الْفَرَحِ بِالْعُثُورِ عَلَى الْكَنْزِ النَّفِيسِ .

أَخَذَ عُلْوَانُ بَعْدَ أَنْ غَابَ أَخَوَاهُ عَنْ نَاظِرَيْهِ يُفَكِّرُ فِي شَأْنِ كَنْزِهِ الْعَظِيمِ ، وَشَرَعَ يَضْبِطُ كُلَّ الأَعْمَالِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهَا لِلاِنْتِفَاعِ بِالْكَنْزِ فِي أَقْرَبِ مُدَّةٍ ، وَمَا هِيَ إِلاَّ أَشْهُرٌ قَلاَئِلُ حَتَّى شَيَّدَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ قَصْرًا فَخْمًا وَجَعَلَ

فِيهِ مِنَ الْخَدَمِ مَا لاَ يَعْرِفُ هُوَ نَفْسُهُ عَدَدَهُ ، وَأَصْبَحَ يَحْيَا حَيَاةً مُتْرَفَةً مِلْؤُهَا اللَّهْوُ وَالْقَصْفُ وَالْمَيْلُ إِلَى الرَّاحَةِ .

أَمَّا أَخَوَاهُ الآخَرَانِ فَبَعْدَ أَنْ وَدَّعَاهُ ، أَخَذَا طَرِيقَهُمَا وَعَقَدَا الْعَزْمَ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ إِلَى النِّهَايَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ بِقَادِرٍ عَلَى الْحَدِّ مِنْ ثَبَاتِهِمَا . وَظَلاَّ يَمْشِيَانِ كَثِيرًا وَلاَ يَسْتَرِيحَانِ إِلاَّ قَلِيلاً غَيْرَ مُبَالِيَيْنِ بِالشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ الَّتِي تَلْفَحُ وُجُوهَهُمَا ، وَبِالذِّئَابِ الَّتِي يَتَعَالَى عُوَاؤُهَا كُلَّ لَيْلَةٍ . وَمَا انْقَطَعَا عَنِ السَّيْرِ يَوْمًا بَعْدَمَا تَمَزَّقَتْ نِعَالُهُمَا وَدَمِيَتْ أَقْدَامُهُمَا إِلاَّ أَنَّهُمَا كَانَا يُفَكِّرَانِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَثِيرًا مَا مَلأَ قَلْبَيْهِمَا خَوْفًا وَجَزَعًا . أَلاَ وَهُوَ زَادُهُمَا الَّذِي يُوشِكُ عَلَى الاِنْتِهَاءِ .

لَكِنَّ اللهَ يَسَّرَ لَهُمَا أَمْرًا وَجَعَلَ لَهُمَا مَخْرَجًا مِنْ ضِيقِهِمَا ، فَقَدِ اعْتَرَضَتْهُمَا بَعْدَ انْتِهَاءِ الزَّادِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ قَافِلَةٌ طَوِيلَةٌ مُتَأَلِّفَةٌ مِنْ عَدَدٍ مِنَ الإِبِلِ لاَ يُحْصَى ، فَاسْتَوْقَفَا نَفَرًا مِمَّنْ كَانَ يَقُودُهَا وَعَرَضَا عَلَيْهِمْ إِعْطَاءَ اللُّؤْلُؤَةِ الثَّمِينَةِ الَّتِي مَعَهُمَا مُقَابِلَ بَعْضِ الزَّادِ ، فَرَضُوا بِذَلِكَ وَأَثْقَلُوهُمَا بِمَا قَدَرَا عَلَى حَمْلِهِ مِنَ السَّوِيقِ

وَٱلزَّيْتِ وَٱلتَّمرِ وَٱلشَّرِيحَة ، وَٱنْطَلَقَا فَرِحَيْنِ وَقَدْ زَادَهُمَا ٱلْحُصُولُ عَلَىٰ قُوتٍ جَدِيدٍ نَشَاطًا وَحَزْمًا ، فَأَخَذَا يَحُثَّانِ ٱلْخُطَى أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ رَغْمَ ٱلتَّعَبِ ٱلشَّدِيدِ ٱلَّذِي كَانَا يَشْعُرَانِ بِهِ ، وَفِيمَا هُمَا سَائِرَانِ ، قَالَ زَعْفَانُ لِأَخِيهِ بَسَّامٍ :

ـ مَضَى عَلَى فِرَاقِنَا لِأَخِينَا عِلْوَانَ أَكْثَرُ مِنَ ٱلشَّهْرِ ، وَنَحْنُ لَا نَزَالُ نَمْشِي دُونَ أَنْ نَمُرَّ بِمَسْكَنٍ آهِلٍ أَوْ قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ ، ٱلْحَقُّ يُقَالُ إِنَّنِي أَكَادُ أَهْوِي إِلَى ٱلْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ ٱلتَّعَبِ .

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ مُشَجِّعًا .

ـ تَدَرَّعْ بِالصَّبْرِ يَا أَخِي . فَاللهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ انْعِزَالَنَا عَنِ ٱلنَّاسِ سَيَطُولُ أَكْثَرَ مِمَّا طَالَ ، ٱنْظُرْ إِلَى ذَلِكَ ٱلْجَبَلِ ٱلشَّامِخِ ٱلْمُكَلَّلِ بِالْأَشْجَارِ ، أَعْتَقِدُ أَنَّ وَرَاءَهُ أُنَاسًا يَعِيشُونَ هُنَاكَ ، وَسَوْفَ نَصِلُ إِلَيْهِمْ قَرِيبًا لِنَسْتَرِيحَ يَوْمًا كَامِلاً بِجِوَارِهِمْ ، نَسْتَجْمِعُ قُوَانَا وَنُوَاصِلُ رِحْلَتَنَا بَعْدَ ذَلِكَ .

وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ لَمَحَ ٱلْأَخَوَانِ ٱلشَّمْسَ تَخْتَفِي وَرَاءَ ذَلِكَ ٱلْجَبَلِ فِي حُمْرَةٍ كَالْأُرْجُوَانِ ، ثُمَّ ٱنْتَشَرَ ٱلظَّلَامُ وَأَضَاءَتِ ٱلنُّجُومُ

وَسَادَ ٱلْكَوْنَ سُكُونٌ رَهِيبٌ ، أَمَّا ٱلْأَخَوَانِ فَقَدْ ظَلَّا يَحُثَّانِ ٱلْخُطَى فِي عَزْمٍ وَحَمَاسٍ وَفِي نَفْسَيْهِمَا ظَمَأٌ شَدِيدٌ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ٱلْجَبَلِ ٱلشَّاهِقِ. بَدَأَ ٱللَّيْلُ يُلَمْلِمُ أَذْيَالَهُ. وَبَدَأَتِ ٱلظُّلْمَةُ تَبْهَتُ قَلِيلاً فِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي أَشْرَفَ فِيهِ ٱلْأَخَوَانِ مِنْ أَعْلَى قِمَّةِ ٱلْجَبَلِ وَرَأَيَا مَدِينَةً عَظِيمَةً جَاثِمَةً عِنْدَ ٱلسَّفْحِ . يُحِيطُ بِهَا سُورٌ مُرْتَفِعٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ .



عِنْدَ ذَلِكَ أَحَسَّ ٱلْأَخَوَانِ بِمَوْجَةٍ مِنَ ٱلسُّرُورِ ٱلْعَارِمِ تَغْمُرُ قَلْبَيْهِمَا ، وَٱنْحَدَرَا يَجْرِيَانِ لِيَجِدَا نَفْسَيْهِمَا أَمَامَ بَابٍ حَدِيدِيٍّ ضَخْمٍ مَا يَزَالُ مُغْلَقًا ،لاَ شَكَّ أَنَّهُ بَابُ هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْعَظِيمَةِ ، وَفِي هَذِهِ ٱلسَّاعَةِ بَدَأَ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعَيْهِمَا ضَجِيجٌ عَالٍ وَجَلَبَةٌ مُرْتَفِعَةٌ ٱنْطَلَقَا مِنَ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْمُغْلَقَةِ يَصْحَبُهُمَا عَوِيلٌ وَصُرَاخٌ ، وَأَرْهَفَا ٱلسَّمْعَ فَلَمْ يَفْهَمَا مِنَ ٱلْأَصْوَاتِ ٱلْمُخْتَلِطَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ تَتَنَاثَرُ فِي ٱلْفَضَاءِ شَيْئًا ، ثُمَّ جَلَسَا عَلَى صَخْرَةٍ كَبِيرَةٍ كَانَتْ بِالْقُرْبِ مِنَ ٱلْبَابِ وَبَقِيَا يَنْتَظِرَانِ بِفَارِغِ صَبْرٍ سَاعَةَ فَتْحِهِ ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْجَلَبَةَ مَا ٱنْفَكَّتْ تَشْتَدُّ ، وَٱلصُّرَاخَ مَا فَتِىءَ يَحْتَدُّ وَيَعْظُمُ وَيَتَعَالَى ، فَزَالَ ٱغْتِبَاطُهُمَا وَٱطْمِئْنَانُهُمَا وَحَلَّ مَحَلَّهُمَا خَوْفٌ وَوَحْشَةٌ وَهُمَا يَقُولاَنِ :

– تُرَى مَاذَا حَدَثَ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ؟

وَفَجْأَةً سَمِعَا وَقْعَ سَنَابِكِ بَعْضِ ٱلْخُيُولِ يَشْتَدُّ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُمَا ، وَإِذَا بِالْبَابِ يُفْتَحُ بِقَعْقَعَةٍ وَيُطِلُّ مِنْهُ فُرْسَانٌ أَرْبَعَةٌ مُمْتَطِينَ خُيُولاً جَامِحَةً يَكَادُ يَعْجِزُ ٱللِّجَامُ عَنْ كَبْحِهَا

وَمَا إِنْ وَقَعَتْ عَيْنُ أَحَدِ ٱلْفُرْسَانِ ٱلْأَرْبَعَةِ عَلَى ٱلْأَخَوَيْنِ حَتَّى صَاحَ بِحِدَّةٍ مُشِيرًا إِلَيْهِمَا :

هَا هُمَا رَجُلاَنِ ، لِنَعُدْ بِهِمَا حَالاً إِلَى ٱلْوَزِيرِ

وَفِي لَمْحِ ٱلْبَصَرِ نَزَلَ فَارِسَانِ مِنْهُمَا وَأَرْكَبَا ٱلْأَخَوَيْنِ مَعَهُمَا وَعَادَ ٱلْفُرْسَانُ ٱلْأَرْبَعَةُ مِنْ حَيْثُ أَتَوْا وَرَاحُوا يَنْهَبُونَ ٱلْأَرْضَ نَهْبًا ، وَبَعْدَ حِينٍ وَصَلَ ٱلْجَمِيعُ إِلَى قَصْرٍ عَظِيمٍ ، فَأَنْزَلُوا ٱلْأَخَوَيْنِ وَأَدْخَلُوهُمَا إِلَى إِحْدَى ٱلْغُرَفِ وَأَوْصَدُوا ٱلْبَابَ وَرَاءَهُمْ .

عَقَدَ ٱلْخَوْفُ لِسَانَ كُلٍّ مِنْ زَعْفَانَ وَبَسَّامٍ مُنْذُ أَنْ زُجَّ بِهِمَا فِي هَذِهِ ٱلْغُرْفَةِ ، وَأَخَذَا يَنْظُرَانِ إِلَى بَعْضِهِمَا تَارَةً ، وَإِلَى مَا فِي ٱلْغُرْفَةِ مِنْ أَثَاثٍ أَنِيقٍ تَارَةً أُخْرَى ، وَأَرْهَفَا ٱلسَّمْعَ إِلَى مَا يَدُورُ فِي ٱلْخَارِجِ مِنْ حَدِيثٍ ، فَلَمْ يَفْهَمَا غَيْرَ جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ تَتَرَدَّدُ بِكَثْرَةٍ وَهِيَ :

– لَقَدْ مَاتَ ٱلْمَلِكُ ، إِنَّنَا خَسِرْنَا فِيهِ رَجُلاً شَهْمًا وَحَاكِمًا عَطُوفًا عَادِلاً .

عِنْدَ ذَلِكَ اسْتَطَاعَ ٱلْأَخَوَانِ أَنْ يَفْهَمَا شَيْئًا ، وَٱعْتَقَدَا

أَنَّهُمَا ٱتُّهِمَا بِقَتْلِ ٱلْمَلِكِ ، وَأَيْقَنَا أَنَّهُمَا سَيُقْتَلاَنِ لاَمَحَالَةَ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّتِي لاَ يَعْرِفُهُمَا فِيهَا أَحَدٌ ، ثُمَّ قَالَ زَعْفَانُ لِأَخِيهِ :

ـ أَسَمِعْتَ مَا يَقُولُونَ ؟ إِنَّ مَلِكَهُمْ قَدْ مَاتَ ، وَلاَ شَكَّ أَنَّهُمْ سَيَأْخُذُونَ بِثَأْرِهِمْ مِنَّا ظَانِّينَ أَنَّ لَنَا يَدًا فِي مَوْتِهِ ، يَالَلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي حَلَّتْ بِنَا ، أَتُرَانَا فَارَقْنَا قَرْيَتَنَا وَتَحَمَّلْنَا ٱلْمَشَاقَّ وَٱلْأَتْعَابَ لِنَمُوتَ هُنَا ؟ يَالَهُ مِنْ كَنْزٍ طَمِعْنَا فِي ٱلْعُثُورِ عَلَيْهِ !

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ :

ـ نَعَمْ لَقَدْ سَمِعْتُ مَا يَقُولُونَ ، وَلَكِنْ نَحْنُ بَرِيئَانِ بِدَلِيلِ أَنَّهُمْ وَجَدُونَا خَارِجَ مَدِينَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ بَابُهَا ، وَسَنُحَاوِلُ إِثْبَاتَ بَرَاءَتِنَا بِهَذِهِ ٱلْحُجَّةِ ، وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَتَأَكَّدْ أَنَّ ٱلْحَقَّ يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ وَأَنَّ ٱللهَ سَيَكُونُ مَعَنَا .

فِي هَذَا ٱلْوَقْتِ سَمِعَ ٱلْأَخَوَانِ ٱلْبَابَ يُفْتَحُ فَسَكَتَا ، وَدَخَلَ عَلَيْهِمَا جَمَاعَةٌ تُوَشِّي صُدُورَهُمْ أَوْسِمَةٌ ذَهَبِيَّةٌ لاَ شَكَّ أَنَّهُمْ

حَاشِيَةُ ٱلْمَلِكِ ٱلْمُتَوَفَّى ، وَقَالَ أَحَدُهُمْ لِلْأَخَوَيْنِ :

ـ لَعَلَّكُمَا سَمِعْتُمَا بِمَوْتِ مَلِكِنَا ٱلْمُعَظَّمِ ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ :

ـ سَمِعْنَا بِذَلِكَ ، وَلَكِنْ لِمَاذَا أَتَيْتُمْ بِنَا إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ أَتَتَّهِمُونَنَا بِقَتْلِهِ وَنَحْنُ بَرِيئَانِ ؟ فَأَجَابَهُ أَحَدُ أَفْرَادِ ٱلْحَاشِيَةِ

ـ نَعْلَمُ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ أَنَّكُمَا بَرِيئَانِ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ مَاتَ مَوْتَ طَبِيعِيَّةً فَجْرَ هَذَا ٱلْيَوْمِ ، فَلاَ تَخَافَا ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ قَتْلَكُمَ كَمَا تَتَوَهَّمَانِ بَلْ بِالْعَكْسِ ، فَنَحْنُ لَمْ نُرِدْ بِكُمَا إِلاَّ خَيْرًا وَسَيَكُونُ أَحَدُكُمَا سَعِيدَ ٱلْحَظِّ حَقًّا .

فَسَأَلَهُ زَعْفَانُ وَقَدْ زَالَ خَوْفُهُ وَٱطْمَأَنَّ :

ـ كَيْفَ ذَلِكَ أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ ٱلْمُحْتَرَمُ ؟

فَقَالَ لَهُ :

ـ إِنَّنَا فُجِعْنَا هَذَا ٱلصَّبَاحَ فِي أَعَزِّ عَزِيزٍ لَدَيْنَا ، ٱخْتَطَفَتْ ٱلْمَنِيَّةُ وَتَرَكَتْ شَعْبَهُ يَبْكِيهِ وَيَنْدُبُهُ بِحَرْقَةٍ ، وَلَيْسَ هَذِه

ٱلشَّخْصُ ٱلَّذِي فَقَدْنَاهُ سِوَى مَلِكِنَا ٱلْمَحْبُوبِ «رَحِمَهُ ٱللهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً» ، وَإِنْ تَسْأَلَانِي عَنْ سَبَبِ ٱلْمَجِيءِ بِكُمَا إِلَى هُنَا أُخْبِرْكُمَا أَنَّ مِنْ عَادَاتِ سُكَّانِ هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلْعَرِيقَةِ أَنَّهُمْ عِنْدَمَا يَمُوتُ مَلِكُهُمْ أَوْ يُطِيحُونَ بِعَرْشِهِ لِسُوءِ تَصَرُّفِهِ ، يَخْرُجُونَ فِي ٱلصَّبَاحِ ٱلْبَاكِرِ وَأَوَّلُ رَجُلٍ غَرِيبٍ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ يُلَاقُونَهُ يَجْعَلُونَهُ عَلَيْهِمْ مَلِكًا وَيُبَايِعُهُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلْمُوَالِي ، وَلَعَلَّكُمَا فَهِمْتُمَا ٱلْآنَ أَنَّ أَحَدَكُمَا سَيُصْبِحُ مَلِكًا عَلَى هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ فَمَنْ مِنْكُمَا يَقْبَلُ ذَلِكَ ؟

ٱشْتَدَّ ٱسْتِغْرَابُ ٱلْأَخَوَيْنِ وَٱزْدَادَتْ دَهْشَتُهُمَا وَأَخَذَا يَتَرَاسَلَانِ بِاللِّحَاظِ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَا ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُ أَفْرَادِ ٱلْحَاشِيَةِ لِمَنْ مَعَهُ :

ـ لَا شَكَّ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُرِيدُ ٱلْمُلْكَ لِنَفْسِهِ ، فَلْنَتْرُكْهُمَا فِي غُرْفَتِهِمَا وَلْنَعُدْ إِلَيْهِمَا بَعْدَ حِينٍ لِنَعْرِفَ مَنْ سَيَكُونُ مِنْهُمَا ٱلْمَلِكَ .

ثُمَّ أَوْصَدُوا ٱلْبَابَ بِلُطْفٍ وَٱنْصَرَفُوا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ ٱلْتَفَتَ زَعْفَانُ إِلَى أَخِيهِ بَسَّامٍ وَقَالَ مُبْتَسِمًا :

ـ عَجِيبٌ أَمْرُ هَؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ نِظَامُهُمْ ، كُنَّا نَطْمَعُ بِالنَّجَاةِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ، وَإِذَا بِالْمُلْكِ يُعْرَضُ عَلَيْنَا

ثُمَّ قَالَ بَسَّامٌ :

ـ أَظُنُّ أَنَّهُ ٱلْكَنْزُ ٱلثَّانِي ٱلَّذِي وَعَدَنَا بِهِ ذَلِكَ ٱلشَّيْخُ وَهُوَ لَيْسَ كَالْأَوَّلِ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ ٱلْاِقْتِسَامَ . فَمَنْ سَيَكُونُ مِنَّا ٱلْمَلِكَ ؟ أَتَرْضَى أَنْتَ يَا زَعْفَانُ ؟

فَأَجَابَهُ زَعْفَانُ :

ـ أَنْتَ أَوْلَى بِالْمُلْكِ مِنِّي ، لِأَنَّكَ أَكْثَرُ ذَكَاءً وَأَرْجَحُ تَفْكِيرًا وَأَعْظَمُ قُدْرَةً عَلَى تَصْرِيفِ ٱلشُّؤُونِ ، وَخَاصَّةً شُؤُونَ ٱلدُّوَلِ .وَلِهَذَا لَا تُمَانِعْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْنَا ٱلْقَوْمُ وَلَا تَنْسَ مَا قُلْتُ لَكَ ، أَمَّا أَنَا فَحَسْبِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ٱلَّذِي سَتَنَالُهُ أَنْ تَسْتَوْزِرَنِي ، أَوْ أَنْ تَجْعَلَنِي مِنْ أَفْرَادِ حَاشِيَتِكَ ٱلْمُقَرَّبِينَ عَلَى ٱلْأَقَلِّ .

أَطْرَقَ بَسَّامٌ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ :

لَا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ أَقْبَلَ ذَلِكَ ، وَلَا أَشُكُّ أَنَّ مَنْصِبَ

الْمُلْكِ الَّذِي عُرِضَ عَلَيْنَا أَحَدُ الْكُنُوزِ الثَّلَاثَةِ وَلَكِنَّهُ مَعَ الْأَسَفِ زَائِلٌ كَسَابِقِهِ ، وَسَوْفَ يَنْتَهِي يَوْمًا لَا مَحَالَةَ . وَأَنَّ مُلْكًا أُعْطِيتَهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَهُوَ مُنْتَزَعٌ مِنْكَ آجِلًا أَوْ عَاجِلًا ، وَأَنَّ قَوْمًا رَأَّسُوكَ عَلَيْهِمْ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَوْ أَنْ يَخْتَبِرُوكَ وَيَمْتَحِنُوكَ لَمُطِيحُونَ بِتَاجِكَ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَشَاؤُونَ لِيُعَوِّضُوكَ بِأَيِّ غَرِيبٍ يَفِدُ عَلَيْهِمْ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ قَبُولِ هَذَا الْمَنْصِبِ فَإِنِّي أُلِحُّ أَنْ تَقْبَلَهُ أَنْتَ ، وَأُهَنِّئُكَ بِهِ مِنَ الْآنَ ، وَأَتَمَنَّى أَنْ تُحْسِنَ مُعَامَلَةَ رَعِيَّتِكَ كَيْ تَضْمَنَ حُبَّهُمْ لَكَ وَالْتِفَافَهُمْ حَوْلَكَ وَمُنَاصَرَتَهُمْ إِيَّاكَ .

سَكَتَ زَعْفَانُ وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا فَفَهِمَ بَسَّامٌ أَنَّهُ رَضِيَ بِمَا قَالَ ، وَقَبِلَ أَنْ يُصْبِحَ مِنَ الْغَدِ مَلِكَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَجِيبَةِ . وَفِي هَذَا الْوَقْتِ فُتِحَ الْبَابُ وَتَقَدَّمَ أَفْرَادُ الْحَاشِيَةِ إِلَى الْأَخَوَيْنِ وَقَالَ أَحَدُهُمْ :

ـ مَنْ مِنْكُمَا أَصْبَحَ مَلِكَنَا الْجَدِيدَ ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ مُشِيرًا إِلَى أَخِيهِ :

ـ إِنَّهُ أَخِي زَعْفَانُ ، وَيُمْكِنُ لَكُمْ أَنْ تَثِقُوا بِهِ مِنَ الْآنَ فَهُوَ ذَكِيٌّ مُدَبِّرٌ ، وَحَازِمٌ نَاشِطٌ . عِنْدَ ذَلِكَ تَقَدَّمَ أَفْرَادُ الْحَاشِيَةِ وَقَبَّلُوا يَمِينَهُ ، ثُمَّ قَالَ الْوَزِيرُ الْأَكْبَرُ لِلْمَلِكِ الْجَدِيدِ :

ـ قَدْ تَمَّ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ ، وَغَدًا يَحْتَفِلُ الشَّعْبُ بِمُبَايَعَتِكُمْ وَتَنْصِيبِكُمْ ، فَإِلَى الْغَدِ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ .

مَعَ مَطْلَعِ الْفَجْرِ بَدَأَ سُكَّانُ الْمَدِينَةِ يَتَوَافَدُونَ عَلَى الْقَصْرِ فُرَادَى وَجَمَاعَاتٍ يَدْفَعُهُمُ الشَّوْقُ إِلَى رُؤْيَةِ مَلِكِهِمُ الْجَدِيدِ . وَمَا إِنْ بَدَأَتِ السَّاحَةُ تَغَصُّ بِجُمُوعِهِمُ الْغَفِيرَةِ حَتَّى لَاحَ الْمَلِكُ زَعْفَانُ مِنْ شُرْفَةِ الْقَصْرِ ، وَهُوَ يَرْتَدِي ثِيَابًا مُطَرَّزَةً بِالذَّهَبِ وَعَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مُرَصَّعٌ بِاللَّآلِئِ الْبَرَّاقَةِ اللَّامِعَةِ ، وَقَدْ وَقَفَ إِلَى يَمِينِهِ وَزِيرُهُ الْأَكْبَرُ ، وَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ دَوَّتْ عَاصِفَةٌ مِنَ التَّصْفِيقِ وَالْهُتَافِ .

ثُمَّ شَرَعَ النَّاسُ يُرَدِّدُونَ فِي صَوْتٍ وَاحِدٍ :

أَصْبَحْتَ يَازَعْفَانْ مَلِكَنَا الْجَدِيدْ
الْعَدْلَ وَالْأَمَانْ ذَاكَ الَّذِي نُرِيدْ

ثُمَّ تَقَدَّمَ ٱلْوَزِيرُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَنَحْنَحَ لِيَصْقُلَ صَوْتَهُ وَقَالَ :

- « أَيُّهَا ٱلنَّاسُ اسْمَعُوا وَعُوا ، لَقَدْ فَقَدْنَا بِالأَمْسِ رَجُلاً عَظِيمًا وَهُوَ مَلِكُنَا ٱلرَّاحِلُ «تَغَمَّدَهُ ٱللهُ بِرَحْمَتِهِ» وَنَقِفُ ٱلْيَوْمَ لِنُبَايِعَ مَلِكًا جَدِيدًا لاَ يَقِلُّ عَنْهُ عَظَمَةً ، نَتَمَنَّى مِنْ كُلِّ قُلُوبِنَا أَنْ يَكُونَ خَيْرَ خَلَفٍ لِخَيْرِ سَلَفٍ ، وَٱلْآنَ لِيَصْعَدْ إِلَى ٱلْقَصْرِ أَعْيَانُ ٱلْبِلاَدِ وَشُيُوخُ ٱلْقَبَائِلِ لِتَهْنِئَةِ ٱلْمَلِكِ نِيَابَةً عَنِ ٱلشَّعْبِ كُلِّهِ ، وَٱلسَّلاَمُ » .

عِنْدَ ذَلِكَ بَدَأَ ٱلنَّاسُ يَتَفَرَّقُونَ وَيَعُودُونَ إِلَى دِيَارِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ وَهُمْ يَهْتِفُونَ بِحَيَاةِ مَلِكِهِمُ ٱلْجَدِيدِ وَمُنْشِدِينَ أَعْذَبَ ٱلْأَنَاشِيدِ .

أَمَّا زَعْفَانُ فَلاَ تَسَلْ عَنْ حَالِهِ، فَالْفَرَحُ يَكَادُ يَقْتُلُهُ وَٱلْعَظَمَةُ بَدَأَتْ تَدِبُّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَلَقَدْ صَارَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيَتَشَامَخُ فِي مِشْيَتِهِ مُنْذُ يَوْمِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَأَمَّا بَسَّامٌ فَهُوَ مَا زَالَ حَائِرًا مُتَعَجِّبًا ، يَنْتَظِرُ بِفَارِغِ صَبْرٍ فُرْصَةَ ٱلانْفِرَادِ بِأَخِيهِ لِيُعْلِمَهُ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُوَاصَلَةٍ لِلرِّحْلَةِ ٱلَّتِي بَدَأَهَا مَعَ أَخَوَيْهِ مُنْذُ عِدَّةِ أَشْهُرٍ، وَقَدْ حَانَتْ هَذِهِ ٱلْفُرْصَةُ عِنْدَمَا نَادَاهُ ٱلْمَلِكُ وَأَدْخَلَهُ إِلَى إِحْدَى

غُرَفِ ٱلْقَصْرِ وَقَالَ لَهُ فِي ٱزْدِهَاءٍ :

- مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا ٱلشَّعْبِ ٱلْمَائِجِ كَالْبَحْرِ وَٱلْمُنَادِي بِحَيَاتِي ؟ أَلاَ تَفْهَمُ أَنَّهُ يُحِبُّنِي وَيُنْزِلُنِي أَسْمَى مَنْزِلٍ مِن سُوَيْدَاءِ ٱلْقُلُوبِ ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ :

- أَتَمَنَّى ذَلِكَ، لَكِنَّ ٱلْمُهِمَّ بِالنِّسْبَةِ لِي هُوَ أَنْ أُعْلِمَكَ بِأَنِّي مُقِرٌّ ٱلْعَزْمَ عَلَى مُوَاصَلَةِ ٱلسَّيْرِ وَحْدِي لِأَجِدَ كَنْزِي مِثْلَمَا وَجَدْتَ أَنْتَ وَعُلْوَانُ كَنْزَيْكُمَا ، وَأَلْتَمِسُ مِنْكَ أَنْ تَهَبَنِي جَوَادًا مِن خُيُولِ مَمْلَكَتِكَ ٱلْأَصِيلَةِ وَبَعْضَ ٱلزَّادِ لِأَسْتَعِينَ بِهِمَا عَلَى ٱلسَّفَرِ

نَظَرَ إِلَيْهِ أَخُوهُ ٱلْمَلِكُ فِي عَطْفٍ وَقَالَ لَهُ :

- إِنَّ فِرَاقَكَ لَيُحْزِنُنِي كَثِيرًا يَا أَخِي ٱلْعَزِيزَ ، وَقَدْ فَكَّرْتُ أَنْ أُسْنِدَ إِلَيْكَ مَنْصِبًا هَامًّا فِي مَمْلَكَتِي لَكِنِّي تَأَكَّدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّكَ سَوْفَ لاَ تَقْبَلُهُ مَهْمَا أَلْحَحْتُ عَلَيْكَ نَظَرًا لِرَغْبَتِكَ فِي مُوَاصَلَةِ ٱلرِّحْلَةِ ، أَمَّا ٱلزَّادُ وَٱلْجَوَادُ فَسَيَكُونَانِ مُهَيَّأَيْنِ بَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

ثُمَّ نَادَى حَاجِبَهُ فَجَاءَهُ مُسْرِعًا وَقَالَ لَهُ :

ـ أَمْرُ مَوْلاَيَ

فَقَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ :

ـ سَيُفَارِقُنَا أَخُونَا بَعْدَ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ. وَسَيُسَافِرُ إِلَى بَلَدٍ بَعِيدٍ. وَلِذَلِكَ أَحْضِرْ لَهُ مِنَ ٱلآنَ جَوَادًا أَصِيلاً وَزَادًا كَثِيرًا لِيَسْتَعِينَ بِهِمَا عَلَى ٱلسَّفَرِ .

وَمَا هِيَ إِلاَّ سَاعَةٌ قَصِيرَةٌ حَتَّى كَانَ ٱلزَّادُ مُهَيَّئًا وَٱلْجَوَادُ يَصْهَلُ صَهِيلاً أَمَامَ سَاحَةِ ٱلْقَصْرِ فَرَكِبَهُ بَسَّامٌ بَعْدَ أَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنَ ٱلطَّعَامِ . وَقَبَّلَ أَخَاهُ وَوَدَّعَهُ وَٱنْطَلَقَ بِهِ ٱلْجَوَادُ يَرْكُضُ رَكْضًا وَيَنْهَبُ ٱلأَرْضَ نَهْبًا . وَٱلْمَلِكُ يُرَاقِبُهُ مِنْ شُرْفَةِ قَصْرِهِ ٱلْعَالِيَةِ . وَحِينَمَا ٱخْتَفَى عَنْ بَصَرِهِ شَرَعَ فِي ٱلتَّحَادُثِ مَعَ حَاشِيَتِهِ لِتَصْرِيفِ أُمُورِ ٱلْبِلاَدِ .

مَازَالَ بَسَّامٌ وَهُوَ عَلَى ظَهْرِ جَوَادِهِ يَطْوِي ٱلأَرْضَ طَيًّا ، وَلَقَدْ مَضَى عَلَى فِرَاقِهِ لأَخِيهِ ٱلْمَلِكِ أَكْثَرُ مِنْ أُسْبُوعٍ لَمْ يَسْتَرِحْ خِلاَلَهُ إِلاَّ سَاعَاتٍ قَلِيلَةً ، فَهُوَ تَارَةً مُنْحَدِرٌ إِلَى وَادٍ أَوْ مُتَسَلِّقٌ

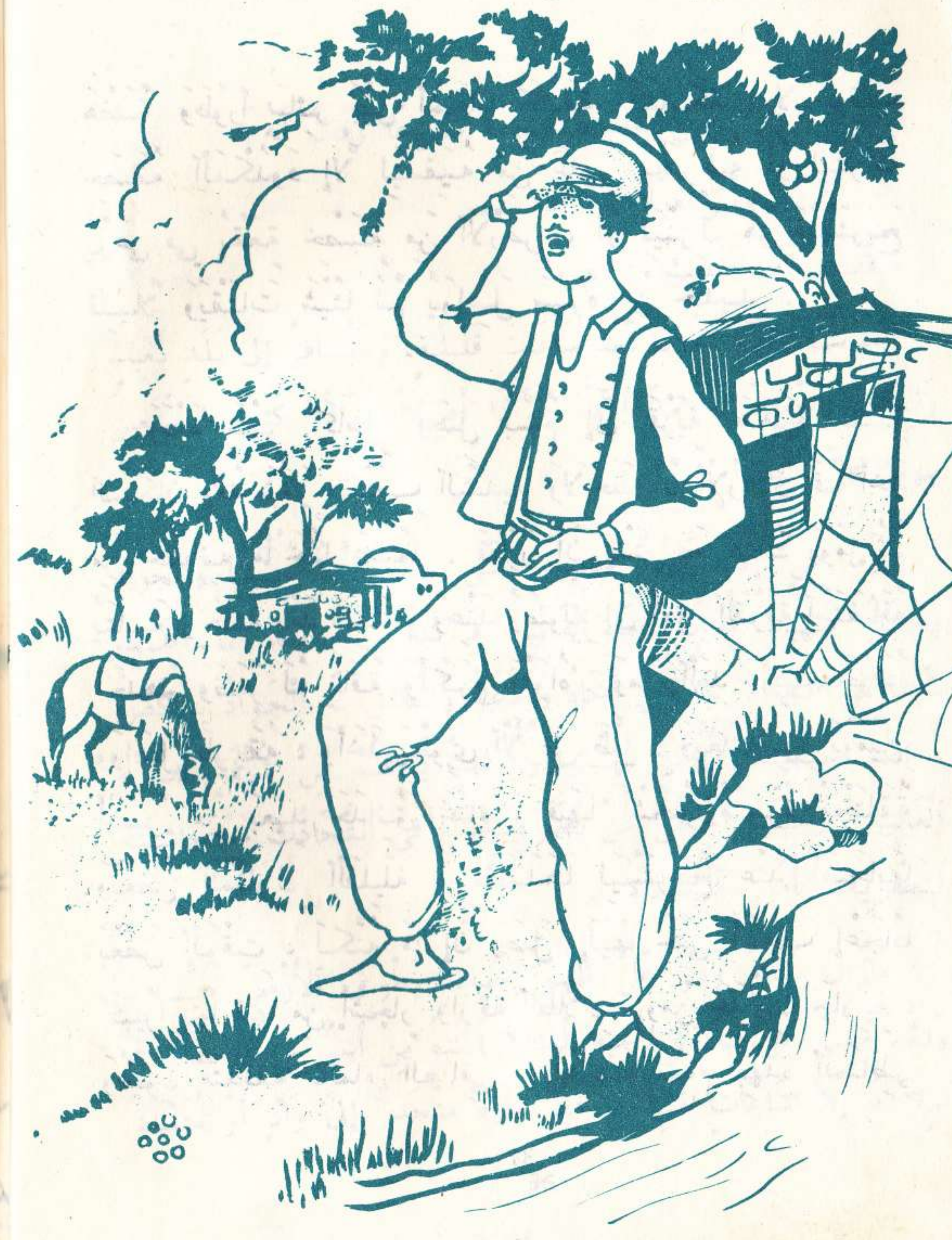
هَضْبَةً وَطَوْرًا سَائِرٌ بَيْنَ أَشْجَارٍ كَثِيفَةٍ مُتَشَابِكَةٍ ، لاَ يُوقِفُ حِصَانَهُ ٱلْمَكْدُودَ إِلاَّ لِيَسْقِيَهُ مِنْ غَدِيرٍ يَعْتَرِضُهُ أَوْ لِيَتْرُكَهُ يَرْعَى فِي بُقْعَةٍ خِصْبَةٍ مِنَ ٱلأَرْضِ ، أَوْ لِيَنْزِلَ هُوَ فَيَسْتَرِيحَ قَلِيلاً وَيَقْتَاتَ شَيْئًا ثُمَّ يُوَاصِلَ سَيْرَهُ مِنْ جَدِيدٍ .

وَبَعْدَ شَهْرٍ كَامِلٍ وَصَلَ بَسَّامٌ إِلَى قَرْيَةٍ صَغِيرَةٍ قَلِيلَةِ ٱلسُّكَّانِ وَقَدْ شَعَرَ بِالتَّعَبِ ٱلشَّدِيدِ وَلاَحَظَ أَنَّ ٱلإِرْهَاقَ قَدْ أَخَذَ مِنْ حِصَانِهِ مَأْخَذًا عَظِيمًا . فَقَرَّرَ أَنْ يَسْتَرِيحَ هُنَاكَ يَوْمًا ثُمَّ يُتَابِعَ رِحْلَتَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى أَهْلِ ٱلْقَرْيَةِ ٱسْتَضَافَهُ أَحَدُهُمْ وَنَحَرَ لَهُ نَاقَةً وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ . وَمِنَ ٱلْغَدِ رَكِبَ جَوَادَهُ وَوَاصَلَ طَرِيقَهُ ، وَأَخَذَ يَطْوِي ٱلأَرْضَ طَيًّا . وَبَعْدَ مَسِيرِ يَوْمَيْنِ أَبْصَرَ مِنْ بَعِيدٍ حَدَائِقَ غَنَّاءَ ، فِيهَا أَشْجَارٌ مُثْمِرَةٌ مُخْتَلِفَةٌ وَبَعْضُ ٱلْمَنَازِلِ ٱلْقَلِيلَةِ ، فَقَصَدَهَا لِيَسْتَرِيحَ عِنْدَ أَصْحَابِهَا بَعْضَ ٱلْوَقْتِ . لَكِنَّهُ مَا إِنْ وَصَلَ إِلَيْهَا حَتَّى أُعْجِبَ إِعْجَابًا كَبِيرًا بِمَا فِيهَا مِنْ أَشْجَارٍ وَارِفَةِ ٱلظِّلاَلِ ، وَمِنْ جَدَاوِلَ جَارِيَةٍ ، وَعُيُونٍ مُتَدَفِّقَةٍ بِالْمَاءِ ٱلصَّافِي أُعْجِبَ بَسَّامٌ بِهَذِهِ ٱلْمَنَاظِرِ

ٱلسَّاحِرَة ٱلْخَلاَّبَة لَكِنَّهُ لَمْ يُشَاهِدْ أَحَدًا فِي هَذَا ٱلْمَكَان ، ثُمَّ عَرَّجَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَنَازِل ٱلْقَلِيلَة وَنَادَى سَاكِنِيهَا بِمِلْءِ فِيهِ وَكَمْ كَانَتْ حَيْرَتُهُ شَدِيدَةً عِنْدَمَا لَمْ يُجِبْ نِدَاءَهُ أَحَدٌ ، وَرَأَى بِأَحَدِ ٱلْأَبْوَاب أَنَّ ٱلْعَنْكَبُوتَ قَدْ نَسَجَتْ بَعْضَ ٱلْخُيُوط . فَعَلِمَ مِنْ فَوْرِهِ أَنَّ هَذِهِ ٱلدِّيَار مَهْجُورَةٌ مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيد ، لَكِنَّهُ لَمْ يَعْرِف ٱلسَّبَبَ . ثُمَّ تَقَدَّمَ مَدْهُوشًا وَوَلَجَ مَنْزِلاً وَأَخَذَ يَجُولُ فِي غُرَفِهِ فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ ٱلْغُبَار مُتَرَاكِمًا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ أَثَاثٍ قَلِيلٍ وَخَزَائِنَ فَارِغَة . وَظَلَّ بَسَّامٌ طِيلَةَ سَاعَاتٍ يُفَكِّرُ فِي هَذِهِ ٱلْقَرْيَة ٱلنَّضِرَة ٱلْجَمِيلَة ٱلَّتِي لاَ يَنْقُصُهَا إِلاَّ ٱلْبَشَرُ ثُمَّ أَخَذَ يَتَأَمَّلُ مِنْ جَدِيدٍ هَذِهِ ٱلسَّوَاقِي ٱلرَّقْرَاقَة وَتِلْكَ ٱلْأَشْجَار ٱلْمُثْقَلَة بِأَشْهَى ٱلثِّمَارِ . وَهَاتِيكَ ٱلْأَبْوَاب ٱلَّتِي بَنَتْ عَلَيْهَا ٱلْعَنَاكِبُ بُيُوتَهَا .

ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ :

هَذِهِ أَرْضٌ كَرِيمَةٌ مِعْطَاءٌ . وَلَكِنْ أَيْنَ أَهْلُهَا يَا تُرَى ؟ لَعَلَّهُمْ فَارَقُوهَا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ . وَهَلْ سَيَجِدُونَ أَجْمَلَ وَأَخْصَبَ مِنْ هَذِهِ ٱلْأَرْضِ ؟ عَلاَمَ يَدُلُّ نَسِيجُ ٱلْعَنْكَبُوتِ وَتَرَاكُمُ ٱلْغُبَارِ ؟



ألاَ يَدُلاَّنِ أَنَّ هَذِهِ ٱلْأَرْضَ لَمْ تَعْرِفِ ٱلْبَشَرَ مُنْذُ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ ؟

ثُمَّ تَذَكَّرَ أَنَّهُ مَا وَصَلَ إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ إِلاَّ بَحْثًا عَنِ ٱلْكَنْزِ ٱلثَّالِثِ ٱلَّذِي سَيَكُونُ مِنْ نَصِيبِهِ وَحْدَهُ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ فِي نَفْسِهِ مَرَّةً أُخْرَى :

ـ أَنَا جِئْتُ أَبْحَثُ عَنْ كَنْزٍ بَاقٍ إِلَى ٱلْأَبَدِ بَعْدَ أَنْ رَفَضْتُ ٱلْكَنْزَيْنِ ٱلسَّابِقَيْنِ ، تُرَى أَلاَ تَكُونُ هَذِهِ ٱلْأَرْضُ ٱلْخِصْبَةُ ، وَهَذِهِ ٱلْحَدَائِقُ ٱلْغَنَّاءُ ، وَتِلْكَ ٱلْجَدَاوِلُ ٱلْجَارِيَةُ، ذَلِكَ ٱلْكَنْزَ ٱلْمَنْشُودَ ؟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ تَدِرُّ عَلَى صَاحِبِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَرْبَاحِ وَهِيَ لاَ تَبْخَلُ عَلَيْهِ بِمَا فِي جَوْفِهَا مِنْ خَيْرَاتٍ ، فَهِيَ بِحَقٍّ كَنْزٌ لاَ يَفْنَى أَبَدًا ، وَمِنَ ٱلْوَاجِبِ عَلَيَّ أَنْ أَعْرِفَ كَيْفَ أَسْتَغِلُّ هَذِهِ ٱلْأَرْضَ . وَعَلَيَّ أَيْضًا أَنْ أُشَمِّرَ عَنْ سَاعِدَيَّ وَأُفْنِيَ فِي خِدْمَتِهَا .

فَرِحَ بَسَّامٌ بِوُجُودِهِ صُدْفَةً فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ وَشَرَعَ فِي إِخْرَاجِ مَا وَجَدَهُ بِتِلْكَ ٱلْغُرَفِ مِنْ أَدَوَاتٍ فِلاَحِيَّةٍ وَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللهِ وَبَدَأَ فِي عَمَلِهِ ٱلْجَدِيدِ ، وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْهِ بِعَزِيمَةٍ ثَابِتَةٍ

وَإِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ . لَقَدْ كَانَ يَنْهَضُ عِنْدَ ٱلْفَجْرِ ٱلْبَاكِرِ وَلاَ يَنْتَهِي مِنْ عَمَلِهِ إِلاَّ عِنْدَ ٱلْغُرُوبِ ، وَهُوَ تَارَةً يَعْزِقُ ٱلْأَرْضَ ، وَأُخْرَى يُخَطِّطُ مَجَارِيَ ٱلْمِيَاهِ وَٱلسَّوَاقِي ، وَطَوْرًا يُقَلِّمُ ٱلْأَشْجَارَ وَيَحْفِرُ ٱلْحُفَرَ ، وَلَمْ يَكُنْ يُعِينُهُ فِي عَمَلِهِ ٱلْمُتْعِبِ غَيْرُ ٱلْحِصَانِ ٱلَّذِي أَهْدَاهُ إِيَّاهُ أَخُوهُ ٱلْمَلِكُ مُنْذُ شَهْرَيْنِ .

بَدَأَتْ أَمْطَارُ ٱلْخَرِيفِ تَنْزِلُ رَذَاذًا ثُمَّ أَصْبَحَتْ هَطْلاً . وَقَدْ فَكَّرَ بَسَّامٌ أَنْ يَزْرَعَ قِسْمًا مِنْ أَرْضِهِ ٱلشَّاسِعَةِ حُبُوبًا . لَكِنَّهُ بَحَثَ عَنِ ٱلْبِذَارِ فَلَمْ يَجِدْ، فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلْقَرِيبَةِ ٱلَّتِي نَزَلَ فِيهَا بَعْدَ فِرَاقِهِ لِأَخِيهِ زَعْفَانَ لِيَأْتِيَ مِنْهَا بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي عَمَلِهِ ٱلْفِلاَحِيِّ . وَعِنْدَمَا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ رَكِبَ جَوَادَهُ وَٱنْطَلَقَ كَالسَّهْمِ قَاصِدًا تِلْكَ ٱلْقَرْيَةَ . وَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا أَخْبَرَ أَهْلَهَا بِمَا رَأَى فِي تِلْكَ ٱلضَّيْعَةِ ٱلسَّاحِرَةِ وَسَأَلَهُمْ عَنْ سَبَبِ خُلُوِّهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . فَأَجَابَهُ أَحَدُ ٱلشُّيُوخِ بِأَنَّهَا كَانَتْ مِلْكًا لِثَلاَثِ عَائِلاَتٍ غَنِيَّةٍ . كَانَ أَفْرَادُهَا مُتَعَلِّقِينَ أَشَدَّ ٱلتَّعَلُّقِ بِأَرْضِهِمْ بَاذِلِينَ جُهْدَهُمْ لِاسْتِغْلاَلِهَا، وَٱلاِنْتِفَاعِ بِخَيْرَاتِهَا . وَظَلُّوا يَحْيَوْنَ حَيَاةً آمِنَةً

رَاضِيَةً إِلَى أَنِ ٱنْتَشَرَ بَيْنَهُمْ وَبَاءٌ فَتَّاكٌ فَهَلَكَ أَغْلَبُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلاَّ ٱلْقَلِيلُ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَرَّرَ أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ نَجَوْا مِنَ ٱلْمَوْتِ أَنْ يَرْتَحِلُوا إِلَى مَكَانٍ آخَرَ ، وَلِذَلِكَ صَارَتْ مَنَازِلُهُمْ وَحُقُولُهُمْ بَعْدَهُمْ قَفْرًا .

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ بَسَّامٌ أَنَّهُ ٱسْتَوْطَنَهَا وَبَدَأَ ٱلْعَيْشَ فِيهَا ، فَأُعْجِبُوا بِهِ وَأَكْبَرُوا فِيهِ حُبَّهُ لِلأَرْضِ وَتَعَلُّقَهُ بِهَا وَعَرَضُوا عَلَيْهِ مُسَاعَدَتَهُمْ إِيَّاهُ فِي كُلِّ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ ، فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَٱكْتَفَى بِٱقْتِرَاضِ كِيسٍ مِنَ ٱلْحُبُوبِ لِيَزْرَعَهُ فِي أَرْضِهِ ٱلْجَدِيدَةِ ، فَلَبَّوْا طَلَبَهُ فِي ٱلْحِينِ وَقَفَلَ رَاجِعًا إِلَى ضَيْعَتِهِ . وَمَا هِيَ إِلاَّ أَعْوَامٌ قَلاَئِلُ حَتَّى أَصْبَحَ بَسَّامٌ فَلاَّحًا شَغُوفًا بِأَرْضِهِ مُتَعَلِّقًا بِهَا ، وَقَدِ ٱكْتَسَبَ إِلَى ذَلِكَ خِبْرَةً وَاسِعَةً بِشُؤُونِ ٱلْفِلاَحَةِ ، لَكِنَّهُ كَانَ يَتَبَرَّمُ مِنَ ٱنْفِرَادِهِ وَمِنْ عُزْلَتِهِ عَنِ ٱلنَّاسِ ، وَكَانَ يَتَرَدَّدُ عَلَى تِلْكَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنْهُ حَتَّى صَارَ مَعْرُوفًا لَدَى سُكَّانِهَا . وَكَثِيرًا مَا حَدَّثَهُمْ عَنْ عِيشَتِهِ ، وَأَفْضَى لَهُمْ بِكُلِّ مَا يُقَاسِيهِ مِنْ وَحْشَةٍ وَقَلَقٍ فِي ذَلِكَ ٱلْمَكَانِ ٱلْمُنْعَزِلِ ، فَرَثَوْا لِحَالِهِ وَعَرَضُوا عَلَيْهِ ٱلزَّوَاجَ مِنْ إِحْدَى بَنَاتِهِمْ فَقَبِلَ ذَلِكَ . وَفِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ

أَصْبَحَ بَسَّامٌ زَوْجًا لإِحْدَى ٱلْفَتَيَاتِ ٱلصَّالِحَاتِ ٱلْمَعْرُوفَاتِ بِحُبِّهِنَّ لِلْعَمَلِ وَقُدْرَتِهِنَّ عَلَى مُشَارَكَةِ ٱلرِّجَالِ فِيهِ . وَفِي هَذَا ٱلْوَقْتِ وَجَدَ بَسَّامٌ مَنْ يُؤْنِسُهُ وَيَطْرُدُ وَحْشَتَهُ وَيَنْهَضُ مَعَهُ بِأَعْبَاءِ ٱلْفِلاَحَةِ ، وَظَلَّ بَسَّامٌ يَعِيشُ فِي أَرْضِهِ ٱلْخِصْبَةِ عِيشَةً هَانِئَةً رَاضِيَةً مَعَ زَوْجَتِهِ ٱلنَّشِيطَةِ ٱلْمُخْلِصَةِ إِلَى أَنْ رَزَقَهُمَا ٱللهُ بِغُلاَمٍ ثُمَّ آخَرَ .



وَبِمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ وَٱلْأَعْوَامِ كَبِرَ هَذَانِ ٱلْوَلَدَانِ وَٱشْتَدَّ عُودُهُمَا وَأَصْبَحَا يُشَارِكَانِ أَبَوَيْهِمَا فِي خِدْمَةِ ٱلْأَرْضِ ، وَقَدْ تَعَلَّمَا مِنْ أَبِيهِمَا ٱلتَّفَانِيَ وَٱلْكَدَّ وَٱلاكْتِسَابَ وَحُبَّ ٱلْأَرْضِ ، وَشَيْئًا فَشَيْئًا اسْتَطَاعَ بَسَّامٌ بِمُسَاعَدَةِ ٱبْنَيْهِ وَزَوْجَتِهِ أَنْ يَشْتَرِيَ بَعْضَ ٱلْأَبْقَارِ وَٱلْخُيُولِ وَٱلْكَثِيرَ مِنْ أَدَوَاتِ ٱلْفِلاَحَةِ إِلَى أَنْ أَصْبَحَ فَلاَّحًا كَبِيرًا وَصَاحِبَ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ ، يَحْيَا حَيَاةً مِلْؤُهَا ٱلسَّعَادَةُ وَٱلْوِئَامُ مَعَ زَوْجَتِهِ وَٱبْنَيْهِ فِي أَرْضِهِ ٱلْخِصْبَةِ ٱلَّتِي لاَ تَبْخَلُ عَلَيْهِ بِخَيْرَاتِهَا ، عِنْدَمَا لاَ يَبْخَلُ عَلَيْهَا بِٱلْعَمَلِ ٱلْمُتَوَاصِلِ .

ٱرْتَحَلَ ٱلشِّتَاءُ بِرِيَاحِهِ ٱلْهَوْجَاءِ وَبَرْدِهِ ٱلْقَارِسِ ، وَأَقْبَلَ فَصْلُ ٱلرَّبِيعِ بِطَقْسِهِ ٱلْمُعْتَدِلِ وَسَمَائِهِ ٱلصَّافِيَةِ وَٱكْتَسَتِ ٱلْأَرْضُ حُلَّةً سُنْدُسِيَّةً نَاضِرَةً مُوَشَّاةً بِمُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ ٱلزُّهُورِ وَٱلرَّيَاحِينِ . وَفِي يَوْمٍ رَائِقٍ مِنْ هَذَا ٱلْفَصْلِ ٱلْبَدِيعِ اسْتَلْقَى بَسَّامٌ عَلَى ٱلْكَلَإِ ٱلْأَخْضَرِ ، وَشَرَعَ يَنْظُرُ بِإِعْجَابٍ إِلَى أَبْقَارِهِ ٱلْوَدِيعَةِ ٱلَّتِي تَرْعَى عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهُ ، وَإِلَى ٱبْنَيْهِ ٱللَّذَيْنِ كَانَا مُنْهَمِكَيْنِ فِي قَلْعِ بَعْضِ ٱلْأَعْشَابِ ٱلطُّفَيْلِيَّةِ . وَفَجْأَةً لَمَحَ مِنْ بَعِيدٍ رَجُلَيْنِ غَرِيبَيْنِ يَتَقَدَّمَانِ نَحْوَهُ بِخُطًى مُتَبَاطِئَةٍ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُمَا ٱلتَّعَبُ مَأْخَذًا

شَدِيدًا ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نَهَضَ بَسَّامٌ لاسْتِقْبَالِهِمَا وَلَمَّا وَصَلاَ إِلَيْهِ طَرَحَا عَلَيْهِ ٱلسَّلاَمَ بِصَوْتٍ خَافِتٍ مُتَهَدِّجٍ ، فَرَدَّ عَلَيْهِمَا ٱلتَّحِيَّةَ وَدَعَاهُمَا إِلَى ٱلْجُلُوسِ بِجَانِبِهِ ، فَتَهَالَكَا عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ ٱلتَّعَبِ ، ثُمَّ قَامَ بَسَّامٌ مُسْرِعًا وَأَتَى لَهُمَا بِقَدَحَيْنِ كَبِيرَيْنِ مَلِيئَيْنِ بِلَبَنٍ لَذِيذٍ .

فَتَنَاوَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا قَدَحًا وَشَرِبَهُ دُفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ شِدَّةِ ٱلْعَطَشِ ثُمَّ قَامَ وَذَبَحَ لَهُمَا خَرُوفًا مِنْ خِرْفَانِهِ ٱلْعَدِيدَةِ ، وَأَمَرَ زَوْجَتَهُ بِإِحْضَارِ طَعَامِ ٱلْغَدَاءِ لِهَذَيْنِ ٱلزَّائِرَيْنِ ٱلْغَرِيبَيْنِ ، وَبَعْدَ أَنِ ٱسْتَرَاحَا قَلِيلاً قَالَ لَهُمَا بَسَّامٌ :

- يَظْهَرُ أَنَّكُمَا غَرِيبَانِ عَنْ هَذِهِ ٱلْجِهَةِ ، فَإِلَى أَيِّ مَكَانٍ تَقْصِدَانِ ؟

فَأَجَابَهُ أَحَدُهُمَا :

- نَعَمْ غَرِيبَانِ، أَتَيْنَا مِنْ بَلَدٍ بَعِيدٍ بَاحِثَيْنِ عَنْ عَمَلٍ وَقَدْ مَرَرْنَا فِي طَرِيقِنَا بِقَرْيَةٍ لاَ تَبْعُدُ عَنْكَ كَثِيرًا ، فَأَخْبَرَنَا أَهْلُهَا بِأَنَّ فِي هَذَا ٱلْمَكَانِ فَلاَّحًا كَبِيرًا رُبَّمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَى

عُمَّال يُسَاعِدُونَهُ فِي عَمَلِهِ ، وَلِذَلِكَ جِئْنَاكَ مُلْتَمِسَين تَشْغِيلَنَا إِذَا لَمْ تَرَ مَانِعًا .

فَقَالَ لَهُمَا بَسَّامٌ :

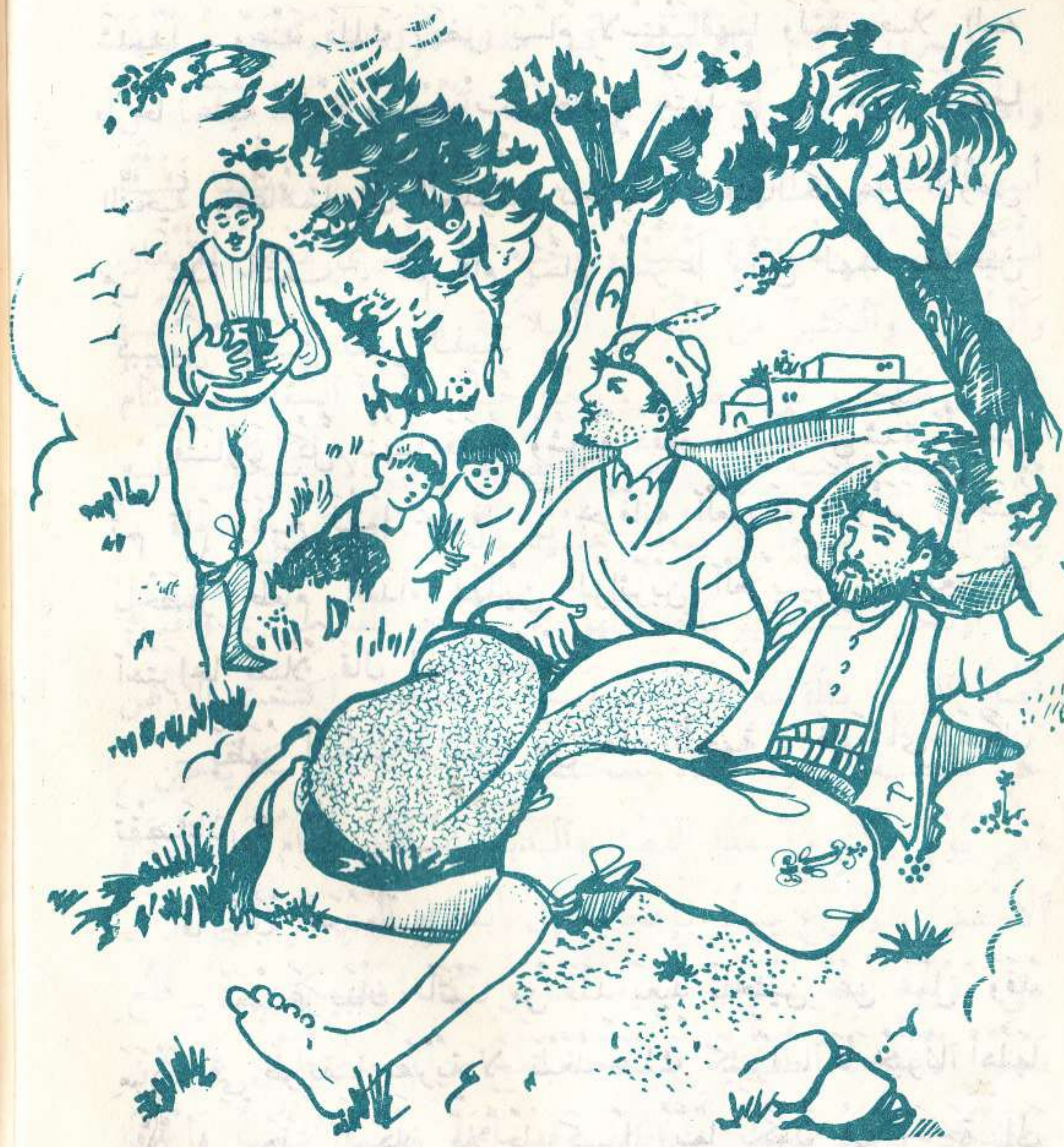
ــ اَلشُّغْلُ مُتَوَفِّرٌ ، وَأَنَا بِحَقٍّ فِي حَاجَةٍ إِلَى عَمَلَةٍ كَثِيرِينَ ، ولِهَذَا يُمْكِنُ لَكُمَا مِنَ ٱلْغَدِ أَنْ تَبْدَآ فِي عَمَلِكُمَا مَعِي ، وَمِنَ ٱللاَّزِمِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ أَعْرِفَ اسْمَيْكُمَا عَلَى ٱلْأَقَلِّ .

فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمَا :

لَكَ ٱلْحَقُّ يَا سَيِّدِي ، أَنَا ٱسْمِي عُلْوَانُ وَهَذَا أَخِي ٱسْمُهُ زَعْفَانُ ، فَارَقْنَا مَوْطِنَنَا ٱلْأَصْلِيَّ مَعَ أَخٍ ثَالِثٍ يُقَالُ لَهُ بَسَّامٌ بَحْثًا عَنْ كُنُوزٍ ثَلاَثَةٍ تَكَهَّنَ لَنَا بِالْعُثُورِ عَلَيْهَا رَجُلٌ مُنَجِّمٌ ، كَانَ ذَلِكَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً يَاسَيِّدِي ...

عِنْدَ ذَلِكَ سَرَتْ رَعْشَةٌ فِي جِسْمِ بَسَّامٍ وَتَمَلَّكَهُ ذُهُولٌ شَدِيدٌ فَانْتَفَضَ مِنْ مَكَانِهِ وَصَاحَ بِمِلْءِ فِيهِ :

ــ أَنْتَ زَعْفَانُ ، وَأَنْتَ عُلْوَانُ ؟ لَقَدْ تَغَيَّرْتُمَا كَثِيرًا . أَنَا .. أَنَا أَخُوكُمَا بَسَّامٌ !



ثُمَّ ٱرْتَمَى عَلَيْهِمَا وَأَخَذَ يُقَبِّلُهُمَا بِكُلِّ حَرَارَةٍ وَدُمُوعُ ٱلْفَرْحَةِ تَنْهَمِرُ عَلَى خَدَّيْهِ ، وَبَغْتَةً ٱلْتَفَتَ ٱلْٱبْنَانِ فَرَأَيَا أَبَاهُمَا وَضَيْفَيْهِ فِي عِنَاقٍ قَوِيٍّ ،
وَلَمَحَا ٱلدُّمُوعَ مُتَحَدِّرَةً عَلَى



خَدَّيْ كُلٍّ مِنْهُمْ ، فَذَهَبَا مُسْرِعَيْنِ لِيَعْرِفَا حَقِيقَةَ ٱلْأَمْرِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلَا مَسَحَ أَبُوهُمَا عَبَرَاتِهِ بِطَرَفِ رِدَائِهِ وَقَالَ لَهُمَا :

— لَعَلَّكُمَا مَا زِلْتُمَا تَذْكُرَانِ قِصَّةَ مَجِيئِي إِلَى هٰذَا ٱلْمَكَانِ ، وَقِصَّةَ أَخَوَيَّ ٱللَّذَيْنِ حَدَّثْتُكُمَا عَنْهُمَا ، إِذَا كُنْتُمَا لَمْ تَنْسَيَا ذٰلِكَ ، فَهٰذَانِ ٱلرَّجُلَانِ هُمَا أَخَوَايَ عُلْوَانُ وَزَعْفَانُ ، وَكِلَاهُمَا عَمٌّ لَكُمَا .

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَى أَخَوَيْهِ زَعْفَانَ وَعُلْوَانَ وَقَالَ لَهُمَا :

— أَنَا فِي شَوْقٍ كَبِيرٍ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا جَرَى لَكُمَا بَعْدِي ، مَاذَا فَعَلْتَ يَا عُلْوَانُ بِٱلْكَنْزِ ؟ وَأَنْتَ يَا زَعْفَانُ بِٱلْمُلْكِ ؟

قَالَ عُلْوَانُ وَهُوَ مَا يَزَالُ يَبْكِي :

— عِنْدَمَا فَارَقْتُمَانِي وَسِرْتُمَا فِي سَبِيلِكُمَا ظَنَنْتُ أَنِّي صِرْتُ أَمِيرَ ٱلْأَغْنِيَاءِ ، وَلَقَدِ ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَبْنِيَ قَصْرًا عَظِيمًا جَعَلْتُ فِيهِ مِنَ ٱلْخَدَمِ مَا لَا أَعْرِفُ أَنَا عَدَدَهُ . وَبِمُرُورِ ٱلْأَيَّامِ تَعَرَّفْتُ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ ٱلسُّوءِ ظَنَنْتُهُمْ أَصْدِقَاءَ لِي فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ ، لٰكِنَّهُمْ سُرْعَانَ مَا تَآمَرُوا عَلَيَّ وَسَرَقُوا كُلَّ مَا بَقِيَ لِي مِنْ ذٰلِكَ

الْكَنْزِ . وَعِنْدَمَا تَفَطَّنْتُ لِذَلِكَ وَجَدْتُ أَنِّي صِرْتُ فَقِيرًا كَمَا كُنْتُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَقَدْ كَرِهْتُ الرُّجُوعَ إِلَى قَرْيَتِنَا خَوْفًا مِنَ الْعَارِ وَالْفَضِيحَةِ لِأَنَّ أَهْلَهَا سَمِعُوا بِقِصَّتِي كُلِّهَا ، وَفَضَّلْتُ مُوَاصَلَةَ السَّيْرِ عَلَّنِي أَجِدُ عَمَلاً آخَرَ أَرْتَزِقُ مِنْهُ بَعْدَ أَنْ فَرَّطْتُ فِي كَنْزِي وَلَمْ أُحْسِنِ التَّصَرُّفَ فِيهِ . وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ الْتَقَيْتُ بِأَخِي زَعْفَانَ الَّذِي قَصَّ عَلَيَّ قِصَّتَهُ

ثُمَّ قَالَ بَسَّامٌ لِأَخِيهِ زَعْفَانَ :

– وَأَنْتَ مَاذَا جَرَى لَكَ بَعْدِي ؟

فَأَجَابَهُ زَعْفَانُ :

– أَمَّا أَنَا فَبَعْدَ أَنْ فَارَقْتَنِي وَانْطَلَقَ يَعْدُو بِكَ الْجَوَادُ شَرَعْتُ فِي الِاهْتِمَامِ بِأُمُورِ مَمْلَكَتِي الصَّغِيرَةِ ، وَقَدْ لَقَّبَنِي شَعْبِي بِالْمَلِكِ الْعَادِلِ ، إِلاَّ أَنَّنِي سُرْعَانَ مَا انْحَرَفْتُ عَنِ الْجَادَّةِ وَصِرْتُ أُمَيِّزُ الْغَنِيَّ عَلَى الْفَقِيرِ وَأَحْيَانًا أَقْهَرُ الْمَظْلُومَ وَلاَ أُنْصِفُهُ ، وَأَحْمِي الظَّالِمَ وَأَقِفُ بِجَانِبِهِ ، إِلَى أَنْ بَدَأَ الشَّعْبُ يَكْرَهُنِي وَيُحَاوِلُ الْخَلاَصَ مِنِّي ، وَأَخِيرًا دَبَّرُوا خِطَّةً لِقَتْلِي . وَلَوْلاَ أَحَدُ أَفْرَادِ

حَاشِيَتِي الَّذِي كَانَ وَفِيًّا لِي لَقُتِلْتُ شَرَّ قِتْلَةٍ جَزَاءَ ظُلْمِي وَابْتِعَادِي عَنِ الْعَدْلِ ، وَلَكِنْ نَجَوْتُ مِنَ الْمَوْتِ بِأُعْجُوبَةٍ ، وَفَرَرْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قَرَّرُوا فِيهَا اغْتِيَالِي وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخَذْتُ أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنِ الْتَقَيْتُ بِأَخِي عُلْوَانَ .

فَقَالَ بَسَّامٌ :

– مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّنِي سَأَلْقَاكُمَا بَعْدَ هَذَا الْفِرَاقِ الطَّوِيلِ ، وَلَكِنِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي جَمَعَنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ لاَ تَبْتَئِسَا وَانْسَيَا الْمَاضِيَ ، لَكِنِ اتَّعِظَا بِهِ وَخُذَا مِنْهُ عِبْرَةً وَدَرْسًا .

ثُمَّ قَالَ لَهُ عُلْوَانُ :

– وَأَنْتَ يَا بَسَّامُ قُصَّ عَلَيْنَا مَا جَرَى لَكَ ؟

فَأَجَابَهُ بَسَّامٌ بَعْدَ أَنْ سَكَتَ بُرْهَةً :

– هَلْ تَذْكُرَانِ ذَلِكَ الشَّيْخَ الَّذِي تَكَهَّنَ لَنَا بِالْكُنُوزِ الثَّلاَثَةِ ؟ وَهَلْ تَذْكُرَانِ عِنْدَمَا قَالَ : - إِنَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمَا زَائِلاَنِ وَمُنْتَهِيَانِ بِسُرْعَةٍ وَالثَّالِثَ بَاقٍ إِلَى الْأَبَدِ ؟ لَقَدْ صَدَقَتْ كَهَانَةُ

ذلكَ ٱلشَّيْخِ فَكَنْزُكَ ياعُلْوانُ قَدْ ٱنْتَهَى بِسُرْعَةٍ كَمَا ذَكَرْتَ ، وَكَنْزُكَ أَيْضًا يازَعْفانُ قَدْ فَقَدْتَهُ فِي أَشْهُرٍ قَلائِلَ وَأَوْشَكْتَ أَنْ تُقْتَلَ مَعَ ذَلِكَ، أَمَّا ٱلْكَنْزُ ٱلَّذِي كَانَ مِنْ نَصِيبِي وَٱلَّذِي لاَ يَنْتَهِي أَبَدًا فَهَلْ تَعْرِفَانِ مَا هُوَ ؟ إِنَّهُ هَذِهِ ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي عَمَّرْتُهَا وَأَفْنَيْتُ ٱلسَّنَوَاتِ ٱلطِّوَالَ فِي خِدْمَتِهَا ، أَلَيْسَتْ أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ كَنْزٍ مِنْ نَوْعِ كَنْزَيْكُمَا ؟

فَقَالَ لَهُ زَعْفَانُ :

ـ صَدَقْتَ يَابَسَّامُ ! لَيْسَ كَالْأَرْضِ كَنْزٌ أَبَدًا ، أَمَّا ٱلْأَمْوَالُ ٱلطَّائِلَةُ ٱلَّتِي نَأْخُذُ مِنْهَا وَلاَ نُضِيفُ إِلَيْهَا ، وَٱلْأَلْقَابُ ٱلْفَخْمَةُ ٱلَّتِي نُبَاهِي بِهَا وَنَعْتَزُّ ، فَهِيَ كَالْفَقَاقِيعِ تَطْفُو عَلَى سَطْحِ ٱلْمَاءِ لَحْظَةً ثُمَّ تَخْتَفِي .وَأَمَّا ٱلْأَرْضُ يَابَسَّامُ فَهِيَ كَنْزٌ خَالِدٌ إِلَى ٱلْأَبَدِ كَمَا قُلْتَ ، وَهَنِيئًا لَكَ بِمَا حَقَّقْتَ .

فَقَالَ بَسَّامٌ مُبْتَسِمًا :

لَقَدْ آمَنْتُمَا أَنَّ ٱلْأَرْضَ وَٱلتَّعَلُّقَ بِهَا أَجْدَى مِنْ كُلِّ مَالٍ وَجَاهٍ ، فَهِيَ إِذَنْ فِي ٱنْتِظَارِ مَا سَتَجُودَانِ بِهِ عَلَيْهَا مِنْ بَذْلٍ

لِلْجُهْدِ وَتَفَانٍ فِي ٱلْعَمَلِ ، أَنَا كَمَا عَهِدْتُمَانِي طَيِّبُ ٱلْقَلْبِ أَكْرَهُ ٱلْأَنَانِيَةَ وَٱلْجَشَعَ ، فَهَذِهِ ٱلْمَنَازِلُ فَارِغَةٌ فَاسْكُنَاهَا ، وَهَذِهِ ٱلْأَرْضُ شَاسِعَةٌ فَخُذَا مِنْهَا مَا طَابَ لَكُمَا ، وَتِلْكَ ٱلدَّوَابُّ لَكُمَا فِي كُلِّ حِينٍ ، ٱلْمُهِمُّ أَنْ تَعْمَلاَ وَأَنْ تَبْذُلاَ ٱلْجُهْدَ فِي خِدْمَةِ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْ أَلْفِ كَنْزٍ .

فَقَالَ عُلْوَانُ :

ـ لاَ . نَحْنُ لاَ نُرِيدُ ٱلاِنْفِصَالَ عَنْكَ أَبَدًا ، وَإِنَّمَا نُشَارِكُكَ فِي أَعْمَالِكَ ، وَلْتَبْقَ ٱلْأَرْضُ وَاحِدَةً ، وَٱلْإِنْتَاجُ وَاحِدًا ، فَلاَ أَحَبَّ إِلَى نَفْسِي مِنْ ضَمِّ ٱلْجُهُودِ وَٱلاِشْتِرَاكِيَةِ .

ٱسْتَحْسَنَ بَسَّامٌ فِكْرَةَ أَخِيهِ وَقَالَ مُبْتَسِمًا :

ـ أَنْتَ عَلَى صَوَابٍ يَاعُلْوَانُ ، لَيْسَ هُنَاكَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّعَاضُدِ ، فَنَحْنُ مِنَ ٱلآنَ إِخْوَةٌ سَوَاسِيَةٌ ، أَرْضِي أَرْضُكُمَا ، وَإِنْتَاجُهَا لِي وَلَكُمَا عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ . أَمَّا ٱلآنَ فَهَلُمَّ بِنَا إِلَى تَنَاوُلِ طَعَامِ ٱلْغَدَاءِ فَزَوْجَتِي فِي ٱنْتِظَارِكُمَا

وَهَكَذَا ٱلْتَقَى ٱلْإِخْوَةُ ٱلثَّلاَثَةُ بَعْدَ فِرَاقٍ دَامَ عِشْرِينَ سَنَةً ،

وقَدْ جَمَعَهُمْ من جَديدٍ حُبُّ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِنْ كُلِّ كَنْزٍ .

سحب من هذا الكتاب في نشرته الرابعة 10.000 نسخة

الثمن 0,500 د. ت.